سيرة ذاتية

فى الخمسين عرفت طريقى

الدكتور

محمود الربيعى



الـكـتـاب : فى الخمسين عرفت طريقى

المؤلـف : د./ محمود الربيعى

رقم الإيداع : ١٧٠٣٣

تاريخ النشر : ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 469 - 2

الـنـاشـر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التـوزيـع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

بدأت فى كتابة هذا الكتاب سنة ١٩٨١ فى الكويت،

وانتهيت منه سنة ١٩٨٤ فى القاهرة.

الإهداء

إلى أجيال الشيوخ الحكماء فى قريتى، الذين لم يعرفوا القراءة والكتابة قط ! وإلى الجيل «اليافع» الذى سبق جيلى، وعلمه حب المغامرة، والسباحة فى الترعة «السوهاجية»، وإلى أبناء جيلى الذين تفرقت بهم السُبل بعد صحبة جميلة لمدة سنة أو اثنتين فى مدرسة القرية «الإلزامية»، وإلى الأجيال التى تلت جيلى فى القرية، ولم يتح لى أن أعرف عن ألوان متعها، أو عن مشاعرها، وعواطفها، وأفكارها، شيئا.

وإلى ذكرى أمى وأبى.

وإلى ولدىّ مى وأمين.

وإلى أعزاء آخرين !

أقدم جوانب من سيرتى الذاتية، متحدثا باسم أبناء جيلى، ومؤديا ضريبة الحظوة التى انفردت بها دونهم، والتى حملتنى إلى معاهد العلم فى «الأزهر» و«دار العلوم» و«جامعة لندن»،

على حين حملتهم إلى العمل فى الحقول إلى الأبد، أو التغرب فى بلاد الله إلى الأبد !

وهناك جوانب أخرى فى قصة حياتى لا سبيل إلى كتابتها، إما لأنها ذهبت من الذاكرة أدراج الرياح، أو لأنها أعز من أن تقتنصها الكلمات، أو لأنها تتصل بأطراف أخرى لست فى حل من التحدث باسمها.

محمود الربيعى

فصول القرية الأربعة

أروع الفصول فى قريتنا فصل الخريف «الدميرة»؛ فيه تغمر مياه الحياض الأرض الزراعية، فيعود الذين كانوا قد رحلوا إلى شرق «السوهاجية» فى الشتاء لرعاية الأرض، إلى غربها، حيث منازلهم الأصلية، فيلتئم شمل الأسر، وتصبح القرية عامرة بالناس أسرة واحدة كبيرة !.

تفيض «الترعة السوهاجية» فى الخريف فتصل إلى عتبة القرية، وتغمر مياهها أحيانا المنازل الواقعة شرقى القرية، فيصبح الدفاع عن هذه المنازل مسئولية الكبار، ومتعة الصغار، وتجعل السباحة فى الطرق المغمورة بالمياه من هذا الفصل فصلا أثيرا.

وفى الخريف تنضج ثمار «البلح» وتصبح الرحلة إلى جنيها وأكلها عيدا سنويا لأبناء جيلى. وفيه يتجمع أبناء جيلى، العائدون إلى منازلهم فى القرية من الحقول لإقامة طويلة، فى

الليالى القمراء، صبيانا وبنات، حلقة الصبيان فى ناحية، وحلقة البنات فى ناحية، وقد تتم بين الحلقتين مناوشات. وهناك يمتد السمر إلى ما بعد منتصف الليل، مع أفانين اللعب والغناء، ومع مشاجرة أو اثنتين، تشبعان الشعور بالحيوية الدافقة!

وفى الخريف تكثر حفلات الزواج، فالناس قد حسبوا حساباتهم، وباعوا المحاصيل الصيفية. «والأفراح» فرصة لأحلام الشبان والشابات الذين لم يتزوجوا، وهى فرصة الحرية للصغار، وفرصة الأكل «الجماعى» خارج البيوت للجميع. وعلى الرغم من أن الصغار كانوا دائما محط تفرقة، وبخاصة فى توزيع أنصباء اللحم، فإنهم لم يشعروا بهذه التفرقة قط، ولذا لم تكن سعادتهم تنقص – بهذا – شيئا.

وفى الخريف يزور شيخ الطريقة أتباعه، فهو موسم الفراغ النسبى، والغنى النسبى، وكان يتردد على العائلات المتوسطة الحال، كأنه كان يرهب العائلات المسرفة فى الغنى، ولا يجد طلبته عند العائلات المسرفة فى الفقر. وكان مجيئة إلى زيارة عائلتنا فرصة ممتدة، تعلق فيها مصابيح الغاز، ويكنس دوار

العائلة، وترش أرض الساحة (الرهبة) مرات فى اليوم الواحد، وتفرش الحُصر، وتصف الأرائك، ويقام للشيخ «بيت أدب» خاص فى طرف قصى، وتجلب الأغطية النظيفة من بعض البيوت، وتعلن حالة من الطوارئ السعيدة .

كان وجود «الشيخ» حفلة مستمرة، تبدأ فى الصباح «بالذبح» وإعداد الخبز (الخبيز). ومع منتصف النهار تتصاعد روائح الطهى. وقد تخص الأمهات الشابات العاملات به أولادهن ببعض اللحم الذى لما ينضج، فيثير ذلك الشجار، وتتبادل الاتهامات بالتفرقة. ولكن المشرفة العامة على شئون هذه المناسبة–وكانت أخت جدتى لأبى–أناديها «ياجِدّه !» – كانت تحسم الأمور دائما قبل أن تتطور فتبلغ سمع الرجال.

بعد انحسار الهجير – وعودة موكب الشيخ من صلاة العصر – ينعقد «الذكر»، فيصطف الذاكرون (الفُقرا) صفين متماثلين تماما يتوسطهما خليفة الشيخ (المستفتح)، ويقف على رأسهما منشدان ينشدان الأشعار الصوفية. وعلى حين يضبط «المستفتح» حركات الذاكرين بالإرشاد والإشارة يضبطها المنشدان بالإيقاع. أما الشيخ نفسه فلم أره مشتركا فى «الذكر»

قـط . كـان قـد كُـف بصره وتـقـدمت بـه السـن، فـى حـين كـان «المشايخ» الذين يزورون عـائلات مجاورة لنا، وينتمون إلى طرق صوفية أخرى - ولم تكن حفلاتهم تفوتنا قط - من الشبان نسبيا، فكانوا يشتركون فى «ذكر» آخرا الليل «بنوبة» أو «نوبتين». يشتد «ذكر العصر»، ويتجلى صوت «المنشد» وتغمر الكون كله موسيقى سماوية فترق مشاعرى-ولم أكن بالقطع قد تجاوزت الرابعة لذلك العهد-حتى لأتصور نفسى سابحا فى الملأ الأعلى مع الأطهار الأبرار الذين كانت تمجدهم الأشعار الصوفية. وكان «المنشد الأول» من أقرباء والدتى، فكان يتيح لى ذلك أن أجلس بين يديه، وأتملى صوته وكلماته. ولم أكن أفهم المعانى كلها، ولكننى كنت أتشرب النغم بشكل كامل.

ومع اقتراب المغرب ينفض «الذكر»، وتكون الصلاة، ثم العشاء، الذى يقدم على ضوء المصابيح. ولم يكن لمثلى- بالطبع-أن يشترك فى العشاء العام. والحقيقة أن العشاء ذاته لم يكن مهما-إذ كان الأطفال يتمتعون داخل البيوت بالأكل الخاص ذاته طيلة أيام المناسبة-ولكن «السهرة» بعد ذلك كانت لها كل الأهمية. كانت ذروة المتعة، وهى صورة «لذكر العصر»،

ولكنها صورة أحفل وأمتع وأكثر تنوعا. والسعيد هو ذلك الطفل الذى يستطيع أن يبقى ساهرا إلى ما بعد انتهاء «الذكر»، وبدء فترة «الإنشاد» الخالص. هنالك يتفنن المنشد، مستعرضا كل طاقته وألوان إبداعه، ولا يزال كذلك حتى يسمع استحسان «الشيخ»-الذى يجلس على أريكة من الأرائك المصطفة على البعد-أو حتى يستثير مشاعر «الفقرا» من جديد فيهبون لنوبة «ذكر» أخرى حافلة، أو حتى تبدأ ساعات الصباح الأولى فى التسلل إلى المكان.

وكانت لحظات وداع «الشيخ» إلى دار عائلة أخرى هى أقسى اللحظات، فهى عند الصبيان علامة لا تخطئ على انقضاء جانب جوهرى من الطعام الطيب، والمتعة المتعددة الجوانب، والحرية التى تتيح السهر فى الخارج دون قيد.

وفى الخريف تسهر القرية على ألوان أخرى من السمر: شاعر الربابة، والمولد، والطبل والمزمار. أما شاعر الربابة فقد كان دائما وافدا على قريتنا، وكان يتراوح بين رجل متواضع الحال، فقير النغم والكلام، أقرب ما يكون إلى المتسولين، وآخر يرأس «فرقة» وتنعقد له «جلسة» ولا يقدر على جلبه سوى

القادرين (وكانت الإشاعات تنتشر بأن هؤلاء-مع اقتدارهم- يقتسمون مع الشاعر ما يحصل عليه من المتفرجين). ولم يرقنى كلام شاعر الربابة كثيرا، وإن كنت سبحت تماما مع صوت الربابة الشجي. والظاهر أن إحساسى فى صباى كان يستجيب «للصوت» أكثر من استجابته «للكلمة». ولم يرق لى-بصفة خاصة-ذلك الصراع «الهائل» الدائر بين «الزناتى» و «الهلالى»، ولا أحسست-فيما بعد- معنى لإدخال الموضوع حيز الدراسات الأكاديمية باسم «الأدب الشعبى». !

أما «المولد» فكان ينعقد مرات قليلة فى القرية إبان الخريف. وهو يقتصر على إنشاد المدائح النبوية دون «ذكر» ودون شيخ. «والصييت» هو سيد الموقف فيه، وتصحبه فرقة متواضعة، تعزف على آلات بدائية هى «الرق» و«الطبلة»، وأحيانا مجرد قرع العصا بالمسبحة. وأشهر صوت ينشد المولد كان يأتى من خارج قريتنا. وكان صاحبه شيخا مكفوف البصر، معتزا بنفسه وبصوته إلى أقصى حد. كان صوته جميلا حقا، وإن لم يحرك عاطفتى كما حركها منشدو الأذكار. والمولد عادة لا يستمر لأكثر من ليلة، ولكنها ليلة كاملة حتى مطلع الفجر. وهو

لا يعقد لمولد ولىٍّ من الأولياء، وإنما هو مولد الرسول، وهو يختتم فى لحظة «مولد النور» بقصة ميلاد النبى. ومع اختتامه يذهب الجميع لصلاة الفجر.

يبقى من أفراح الخريف فى قريتى «الطبل والمزمار»، وهو ينعقد فى الطهور ومولد أحد المشايخ. ولم يكن «الطبل» يثير شجنى، ولكن صوت المزمار «التركى» النقى الحلو، الذى يكاد ينطق، كان يحملنى إلى أقصى غايات الخيال !وفترة العصر فى الطبل والمزمار هى فترة «التحطيب» على إيقاعهما، وكان لقاء زعيمى التحطيب فى قريتنا مناسبة تنعقد لها الأنفاس فى الصدور. كانت مهارتهما فى الذروة، وروحهما الرياضية فى الذروة، وعلى حين كان الأطفال الأبرياء من أمثالى يتصورون أن هذه المباراة العنيفة لابد أن تنتهى بمعركة، كان الأمر ينتهى دائما–على العكس من ذلك–بالأحضان والقبلات. أما فترة المساء فهى فترة رقص الشبان على إيقاع الطبل والمزمار، ويحدث فيه التفريح «بضرب النار»، وهى مسألة خطرة كان من أجلها يحرم على أمثالى من الأطفال حضور فترة الليل إلا فى أضيق الحدود.

فى الليلة الأخيرة من ليالى الطبل والمزمار - وتسمى ليلة «الخيال» - يتحول قارعو الطبل ونافخو المزمار إلى ممثلين يتنكرون فى أزياء طبقا لما تمليه الحكاية، وفى النهاية يستدعون من الجمهور شخصيات لها احترامها فى القرية، ويشبعونها ضربا «خفيفا» تفتدى نفسها منه عادة بدفع مبلغ من المال. وقد شهدت ليلة «الخيال» مرتين اثنتين فى حياتى. ويبدو أن الخطر الذى أشرت إليه. وتأخر وقت «الخيال»، كانا السبب فى حرمانى من تكرار رؤية تلك المتعة المنقرضة من حياتنا.

يلى فصل الخريف فى جماله فى قريتنا فصل الشتاء، هو فصل الكمون حول النار، والحكايات الليلية الطويلة، وهو فصل ولادة الأبقار وكثرة اللبن ومشتقاته. هو الفصل الذى لا يبيت فيه الأطفال على ضيم أبدا، فإذا لم يكن اللحم متيسرا ففى اللبن الحليب، والرائب، والحامض، وفى الجبن والقشدة والسمن، غناء.

والشتاء فصل الشمس المشرقة التى تغمر كل أرجاء قريتى، وكما يمتد مجلس الليل حول النار يمتد مجلس النهار فى ركن مشمس محجوب عن الريح. وفى هذا الركن تخترع

الحكايات من كل جنس ولون، وتنشط الألعاب التى لا تحتاج إلى حركة واسعة، وتنشب المعارك وتنفض، ولكن الود يبقى بعد كل شىء يظلل الجميع، ويتساوى فى حلبة المتعة الأغنياء والفقراء، والكبار، والصغار.

والشتاء فصل الرحيل المؤقت لكثير من العائلات إلى الحقول شرق «السوهاجية». هنالك تبنى «الزرابى» من عيدان الذرة العويجة. وهى تتكون من حجرات للنوم حسب عدد العائلة، ومن فناء كبير يسمى «المراح» تربط فيه الحيوانات، ومن غرفة جلوس وحراسة تسمى «التاية». والتاية هى عصب «الزربية» الحى، فيها الدفء، والسمر فى المساء، وفيها شخص ساهر على الحيوانات–بالتناوب بين أفراد الأسرة من الرجال أو الرجال والنساء–حتى طلوع الصباح.

وفى الشتاء تنضج أزاهير الفول والبرسيم، وتطلع سنابل القمح، وتحوم الفراشات والعصافير والنحل، وتزحف حشرات الحقول، ويزخر الجو بالروائح والأصوات، وتسمن الحيوانات، وتنمو العواطف فى جو الخصب والدفء !

وفـى الشتـاء يشتـرى البـرتـقـال والـيـوسفـى، وتُستَنبت الطمـاطم، ويزرع قصب السكر، وله دور مهم فى حياة الأطفال والكبـار على حد سواء.

وفى الشتاء يذهب الصبيان إلى المدارس، مخلفين فى نفوس الأطفال الذين لم يبلغوا سن «الإلزام» وحشة غريبة، وفيه أوقات وحشة أخرى تحل على القرية باصفرار الشمس وعودة الحيوانات، التى لا يراد لها أن تبيت فى الحقول، إلى القرية.

أما فصل الربيع فمُتَعهُ قليلة نسبيا، فهو الفصل الذى يكون النـاس فيـه مشغولـين بجمـع المحـاصيل الشتويـة والصبيـان بالمدرسة. والمتعة الوحيدة الباقية فى ذهنى من هذا الفصل هى متـعـة الـحصـاد، والمـبـيت فى الـجرن، والاشتراك اللاهى فى «دراسْ» الفول والقمح، والتمتع بأكل السكر «الجلاب» وقصب السكر، الذى يحضره البائعون إلى رءوس الحقول، ويقيمون طول النهار فى خيامهم البدائية. وهم لا يبيعونه لقاء نقود، وإنما لقاء قدر من «أغمار» الفول الناضج، أو «قتَاتى» القمح الناضج.

وأقل فصول السنة متعة فى قريتى فصل الصيف إنه فصل انشغال كل الناس بزراعة المحاصيل الصيفية التى تروى من

ماء السواقى بمشقة بالغة، وهو فصل الحر وانتشار الذباب، ونقص الغذاء، والمتعة الوحيدة الكامنة فيه أنه فصل ترقب نضج البلح، وانطلاق الترعة السوهاجية، وعودة المهاجرين من شرقها إلى غربها، وترقب فصل الخريف، أجمل فصول السنة الأربعة فى قريتى.

★ ★ ★

البداية

كانت أمى تذكر لى أننى ولدت فى فجر ليلة باردة فى «غيط أبو مليسة» فى واحدة من زرابى الحقل، وقد وصفتها فى الفصل السابق. ويقع «أبو مليسة» على مسافة حوالى أربعة كيلو مترات من منزل أسرتى الواقع فى «شق العيايدة» (نسبة إلى جدى الأكبر «أبو عياد») فى جهينة الغربية. وكانت جهينة الغربية إلى ذلك العهد قرية كبيرة تتبع مركز طهطا ومديرية سوهاج، وقد أصبحت الآن مدينة ومركزا تتبع محافظة سوهاج.

وفى شهادة ميلادى أننى ولدت فى ١٥ يناير ١٩٣٢، وليس من الضرورى أن يكون هذا التاريخ دقيقا؛ فمن المحتمل أن القابلة «حليمة الداية»–التى تلقت ميلادى وأبلغته إلى «دفتر المواليد»–قد تأخرت فى الإبلاغ يوما أو يومين، ولكنها لا يمكن أن تكون تأخرت شهرا أو شهورا. وقد رأيت «حليمة الداية»، وهى

سيدة ضخمة كانت تتردد على والدتى، وتحملنى على كتفها، وتدعونى «ولدها». وكانت والدتى بارة بها إلى أقصى حد.

تنتمى أمى إلى فرع «أبو عون»، وينتمى أبى إلى فرع «سليمان»، والفرعان أولاد عمومة يجمعهما الجد الأكبر «أبو عياد». تلقت أمى تعليما أساسيا فى «الكتاب»، وحفظت قدرا كبيرا من القرآن، داومت على استذكاره من المصحف حتى ضعف بصرها فى أخريات حياتها. وأذكر المصحف ذا الخط الكبير الذى كانت تمتلكه وتستذكر فيه، بفتحه على كرسى خشبى صغير أنيق أمامها، كما أذكر طرفا من الحكايات الشيقة التى كانت تقصها علىَّ من بقايا ذكرياتها فى كتاب «أبو راشد». كانت أمى سيدة مبادئ ونظام، مرتبة إلى أقصى حد، نظيفة إلى أقصى حد، معتزة بعائلتها الفقيرة إلى أقصى حد، حانية وحازمة، إلى أقصى حد. أصيبت بالشلل فى أخريات حياتها، وتوفيت سنه ١٩٥٥. أما أبى فلم أره إلا معتل الصحة، كان وحيد والديه، ميسور الحال. وقد توفى سنة ١٩٤٣.

أنجب والداى أحد عشر طفلا، أربعة ذكور وسبع إناث، مات من الذكور أصغرهم، ومات من البنات ثلاث، وقد شهدت موت

أكبر الإناث وأصغر الذكور. وقد جاء الإناث متتابعات، ثم جاء الذكور متتابعين، وأنا أصغر الجميع من الأحياء.

ظللت كالطير الطليق أعيش فصول السنة الأربعة حتى قبيل السادسة فألحقت بالتعليم «الإلزامى». وقد سبق ذلك محاولتان غير ناجحتين لإلحاقى «بالكتاب» فى الرابعة، وبالمدرسة «الإلزامية» فى الخامسة.

كانت المدرسة التى التحقت بها تسمى «مدرسة جهينة الأولية»، وهى إحدى ثلاث مدارس إلزامية فى قريتى لذلك العهد وأشهرها. يواجه الداخل من باب سورها ممشى قصيرا يسلم إلى ردهة مستطيلة واسعة، تحيط بها مكاتب المدرسين من كل جانب، ويميز مكتب الناظر من بينها كساء فاخر من «الجوخ» الأخضر. تفتح أبواب الفصول الدراسية جميعا على الردهة الرئيسية، فصلين على اليمين، وفصلين على اليسار، وفصل فى المواجهة. أما الممشى فيسلم يمينا إلى ركن قصى يصنع فيه «عم عمر» القهوة والشاى للناظر والمدرسين، ويسلم يسارًا إلى «دورة المياه»، «والمزيرة»، «وقسم الحفاظ»، وهو قسم يلتحق به خريجو المدرسة ممن يعدون للالتحاق بالأزهر بحفظ القرآن

كله، وستكون لى فيه جولة طويلة بعد انتهاء فترة التعليم الإلزامى، وفيض من الذكريات !

فى اليوم الأول لالتحاقى بالمدرسة شعرت وكأننى أساق إلى الموت، وبرغم أن الفترة الدراسية كانت قصيرة اعترانى حنين جارف إلى «الأوطان» (شق العيايدة) وحضن الأم. وستدور الأيام وأشعر بحنين مشابه حين أترك القرية إلى أسيوط، وحين أترك أسيوط إلى القاهرة، وحين أترك القاهر إلى لندن، ثم حين أنزل كل بلد جديد لأول مرة !

دعانا الجرس إلى طابور الصباح فقادنى أخى الأكبر، وكان تلميذا فى المدرسة ذاتها يسبقنى بخمس سنوات، إلى طابور الجدد. وبعد تحية العلم أنشد التلاميذ القدامى النشيد التالى بصوت جماعى جليل !

«بلادى بلادى فداك دمى
وهبت حياتى فدى فاسلمى
غرامك أول ما فى الفؤاد
ونجواك آخر ما فى فمى
ساهتف باسمك ما قد حييت
تعيش بلادى ويحيا الوطن»

ثم أرشدنا إلى الدخول إلى الفصل الذى يقع أقصى الردهة فى مواجهة الداخل، مارين بمكتب الناظر فى وضع «تعظيم سلام»، وما إن أخذنا أماكننا فى ارتباك واضح - وكنا حوالى العشرين - حتى أهلّ علينا مدرس الحصة الأولى.

كان شيخا متوسط الطول، أقرب إلى السمنة، يرتدى زيا فاخرا. دخل على عجل، ونادى «قيام» فهب الكل واقفا، وبلهجة آمرة أخرى نادى «جلوس» فارتاح الجميع، وكان ذلك إيذانا ببدء العمل.

كتب الشيخ على يمين السبورة ويسارها شيئا لم أفهمه، وقد تبينت فيما بعد أنه التاريخ الهجرى والميلادى، وأستطيع أن أحدد الآن ذلك الزمان بأنه يوم من أيام سبتمبر أو أكتوبر ١٩٣٧، ثم كان موضوع الدرس - وكان درسا فى الحساب - العد من واحد إلى عشرة، وكان صاحبه، وأول مدرس لى فى حياتى، هو «الشيخ محمد جمعة».

وكان من ألقى على الدرس الثانى فى حياتى «الشيخ عبد اللطيف هارون». دخل إلى الفصل متمهلا - على العكس من «الشيخ محمد جمعة» - طويل القامة، هادئ الملامح، يرتدى زيا

نظيفا، ولكنه ليس فاخرا كزى «الشيخ محمد جمعة»- وألقى علينا درسا ممتعا فى «المحادثة» موضوعه : «كم رجلا للأوزة؟» و«كم رجلا للدجاجة؟»، و «كم رجلا للحمامة؟» وحين بلغ التسابق على الإجابة ذروته حانت منى التفاتة إلى زميلى، الذى كان يشاركنى المقعد، فوجدته ينزوى صامتا يمص إبهامه، ودموعه تسيل على خديه !. ولم يفت منظره هذا «الشيخ » فسأله فى هدوء : لماذا تبكى؟ فقال : «لأننى أريد أن أعود إلى بيتنا»، فقال الشيخ فى حنان بالغ : «ألا نعرف أولا كم رجلا للأوزة والدجاجة والحمامة؟ »ومع ذلك سمح لنا بالانصراف قبل الموعد. وحين أفكر الآن فى قراره الجرئ - فى ظل النظام الصارم للتعليم الإلزامى فى تلك الأيام-أتعجب، وأتمنى ألا يكون قد جر ذلك عليه المتاعب.

ومع مرور الأيام نما إعجابى بالشيخ عبد اللطيف هارون. وأذكر أننى استمعت لعبارة :«ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» لأول مرة منه، وكان يقولها للشيخ محمد جمعة ذاته حين رآه يسرف فى عقاب أحد التلاميذ لخطأ ارتكبه.

وبعد دورة كاملة للأيام تتلمذ علىَّ فى دار العلوم ابن «الشيخ عبد اللطيف هارون»، وكان ذلك فى أوائل السبعنيات.

وقد سألته عن الشيخ فأخبرنى أنه يقيم فى القاهرة-بعد التقاعد-على مقربة من دار العلوم القديمة فى مبناها فى المنيرة، فطلبت موعدا لزيارته. وقد استقبلنى الشيخ حفيا ذات أمسية بعد حوالى ثمانية وثلاثين عاما من يومى الدراسى الأول. كان هادئ الملامح كعادته، نظيفا كالعهد به، ذاكرا فى وضوح أيام تلمذة شقيقى الأكبر وتلمذتى عليه، وحانيا رحيما. فى تلك الأمسية فاضت مشاعرى، واجتاحتنى الذكريات من كل جانب، وبعد أن قضيت فى حضرة «الشيخ» وقتا قصيرا ممتعا ودعته مقبِّلا يده فقبل ما بين عينىَّ. وأذكر أننى قدت سيارتى بعد ذلك إلى منزلى فى مصر الجديدة من خلال الدموع، ثم فجعت إذ علمت بعد ذلك بوقت قصير أنه انتقل إلى جوار ربه !

ولا أذكر من تفاصيل يومى الدراسى الأول بعد ذلك شيئا، ولكننى أذكر الأسئلة التى أمطرنى بها بعد العودة أخى الأوسط، الذى لم يتح له قدر من التعليم، والذى لا يزال يرعى الأرض التى خلفها لنا أبى فى القرية، ويتحسر على الأيام التى لم يعرف قيمتها (خيِّر بين التعليم ورعاية الأرض فاختار الثانية) وأسمع أنه يحس بالمرارة لأنه الوحيد من بين أخوته الذكور الذى كتب

عليه أن يقضى حياته فى الريف، فى حين ينعمان هما بحياة الوظيفة والمدينة !

فى سنوات تعليمى الأولى لم أُظْهر تفوقا دراسيا، بل كنت ألقى - على العكس من ذلك-تعنيفا من أساتذتى لميلى الواضح إلى «اللعب». وحوالى سنتى التعليمية الرابعة بدأ شيء جديد يغزو حياتى : كان لى ابن خالة يعمل مدرسا إلزاميا فى قرية مجاورة لقريتنا اسمها «نزة الدقيشية»، يغدو إليها فى الصباح، ويعود فى المساء إلى بيتهم، وعلى الرغم من أن بيتهم - بيت خالتى - كان قريبا جدا من بيتنا، وعلى الرغم من أن خالتى كانت شديدة العطف علىَّ، وأننى كنت كثير الذهاب إلى بيتها، فإننى كنت قليل الاختلاط بابن خالتى هذا، وذلك للفارق الكبير فى السن، وانشغاله الدائم فى عمله. ولكن ابن خالتى-واسمه الشيخ محمد على - برز فجأة فى حياتى، فقربنى منه، وسمح لى أن أرتاد معه مجلس زملائه فى المساء المبكر كما سمح لى أن أرتاد خزانة كتبه. وقد رأيت فى هذه الخزانة عجبا : الأهرام، والمصور، والإثنين، والهلال، بعضها مكدس على الأرض، وبعضها معلق على حبال ممتدة بطول الحجرة، ودخلت عالم القراءة من باب الصحافة، وكان ذلك حوالى سنة ١٩٤٠.

كنت آخذ شيئا واحدًا فى المرة الواحدة - بإذن من ابن خالتى أو من خالتى إذا كان غائبا - أحمله إلى منزلنا لأقرأه وأعيده. وأذكر جيدا عودتى فرحا من بيت خالتى فى كل مرة، واضعا تحت إبطى المجلة أو الجريدة، حتى إذا وصلت إلى منزلنا صعدت إلى السطوح، واستلقيت على ظهرى، ورحلت - فى الصحيفة - إلى القاهرة، مع أسماء المشاهير، ومع الصور ومع الإعلانات المبوبة (ولم أفهم معنى العبارة فى ذلك الوقت) ومع أسماء دور العرض السينمائى، وأسماء الأفلام. وتأتى إلى ذهنى الآن أصداء من ذلك الماضى البعيد : قرأت فى صفحة السينما عنوان هذا الفيلم: «ارقصى يا حسناء أسبوعا ثانيا»، فظننت أن هذا كله هو اسم الفيلم، ولم أدرك إلا بعد سنوات طويلة أن فيلم «ارقصى يا حسناء» كان يعرض فى أسبوعه الثانى. وقرأت قصيدة شوقى:

قف بروما وشاهد الأمر واشهد
أن للملك مالكا سبحانه

يعاد نشرها فى الأهرام بمناسبة سقوط روما فى يد الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، ولم أفهم الشعر، وإن سحرنى تنسيق

الأبيات والأشطر. وقرأت خبر اغتيال أحمد ماهر فى دار البرلمان (ولم أفهم معنى كلمة اغتيال بالضبط، وإن فهمت بالطبع أنه قتل) وتابعت تشييع جنازته فى المصور فرأيت صور على ماهر والنقراشى والمراغى ومصطفى عبد الرازق، وقرأت فى الهلال لطه حسين والعقاد وأحمد أمين وفكرى أباظة، ولم أفهم معظم ما قرأت. وقرأ على ابن خالتى فى إعجاب كبير قصيدة بشارة الخورى :

أتت هـــنــد تشــكــو إلــى أمــهــا

فســبــحــان مــن جــمــع الــنــيِّــريــن

منشورة فى إطار جميل فى مجلة « الإثنين». وقرأت – على ضوء القمر – محاكمة محمود العيسوى قاتل أحمد ماهر، وتعاطفت معه أشد التعاطف، وحزنت جدا حين حكم عليه بالإعدام، وصببت جام غضبى على النائب العام عبد الرحمن الطوير. وأجريت فى هذه الفترة انتخابات عامة، ورشح لها أحد أقارب الشيخ محمد وأقاربى، فطلب إلى أن أترك المدرسة وأنضم مؤقتا لكتابة أسماء الناخبين فى جداول الانتخابات. وقد أديت ذلك بحماسة بالغة، وترددت على المقر الانتخابى نهارا وليلا، وحين أعلنت النتيجة لغير صالحه حزنت حزنا شديدا !

كان أبي قد توفى - كما ذكرت - سنة ١٩٤٣، وكان شقيقى الأكبر قد التحق بمعهد أسيوط الدينى، وكانت سنوات تعليمى الإلزامى قد قاربت على الانتهاء، وأصبح واضحا لى أن النية متجهة إلى إلحاقى بالأزهر، وكان معنى ذلك أن ألتحق «بقسم الحفاظ» لحفظ القرآن الكريم كله. وكان معلم الحفاظ - الشيخ على الرمكى - صديقا حميما لابن خالتى وقريبا له، وكان قد جاور فيما مضى سنوات قليلة فى معهد طهطا الدينى.

فى قسم الحفاظ عوملت معاملة خاصة، تجلت فى العمل الجاد فى حفظ القرآن، وقضاء بعض المصالح البسيطة «لسيدنا»، واستبقائه لى فى بعض الأيام لمجالسة خلصائه فى بيته، أو حقله القريب من البيوت. وكنت فى هذه الجلسات أحس بوجودى بين مجموعة من طلاب الأزهر، وطلاب المدارس الابتدائية حول النار فى الشتاء، وفى الشمس الساطعة أيام العطلات، مع الأحاديث المتنوعة، والمعلومات الجديدة، وخيالات المستقبل.

وكان «سيدنا» يتخذ لنفسه كتَّابا أهليا فى عطلة الصيف فى دوار متواضع اسمه «مقعد خصلة»، وقد أصبحت عضوا بارزا

فى هذا الكتاب حين تقدمت فى حفظ القرآن. كان الدرس فى الكتاب ينعقد مبكرا فأقوم فيه بواجباتى من حفظ وإعداد، وحين ينفض الدرس-حوالى العاشرة صباحا-يستبقينى سيدنا للانضمام إلى خلصائه الذين يفدون بعد أن ينهى هو مهمته، ويكونوا هم قد استيقظوا من نومهم الصيفى المتأخر. وهناك تعقد ندوتهم التى تلقيت فيها بعض مكونات شخصيتى، وقدمت إلى المعلومات عن نوع الحياة التى تنتظرنى. وقد أسعدنى هذا أحيانا، وأثار قلقى ومخاوفى أحيانا أخرى.

لم تكن مهمة حفظ القرآن كله مهمة يسيرة. كنت أحفظ وأنسى – على الطريقة التى رواها طه حسين فى كتاب «الأيام»– وكنت – نتيجة لذلك – أتعرض لعقاب سيدنا القاسى، ومع ذلك أقول الآن إن القسوة التى لقيتها منه أحيانا تتلاشى أمام الأوقات الرحيمة الممتدة التى تمتعت بها فى ظله، وألوان التشجيع الخالص التى لقيتها منه. كان يحبنى، ويفرح لأية بادرة نجاح تبدو منى، ويبشرنى كثيرا بأنه يتوقع لى أن أكون شيئا مذكورا.

★ ★ ★

على الطريق المجهول

انتهيت من حفظ القرآن بحلول صيف ١٩٤٦، وأعطى سيدنا إشارة الأمان لأسرتى، وأصبحت مؤهلا -من الناحية الشكلية- للالتحاق بالأزهر. ولكننى كنت أضمر فى أعماقى رغبة أخرى هى الالتحاق بمدرسة المعلمين الأولية. وكان مبعث هذه الرغبة إعجابى الذى لايحد بابن خالتى المدرس الإلزامى. كنت أريد أن أقتفى خطواته : أتعلم كما تعلم، وأعود إلى القرية لأشتغل بمهنته ذاتها، وأنضم إلى مجلسه باعتبارى زميلا له، تلك كانت أمنية الأمانى، وكانت ثمة أمنية أخرى : أن أرتدى الزى الإفرنجى (البدلة والطربوش) زى التعليم المدنى، وألا أسجن نفسى فى الزى الأزهرى (الكاكولا والعمامة).

وكان يلزم للقبول بالمعلمين - كما يلزم للقبول بالأزهر - أن أجتاز امتحان مسابقة، شفويا، وتحريريا. فلما ألححتُ على أمى وابن خالتى بدخول المعلمين-وكان امتحان مسابقتها يقع

أولا-اتفق معى على أن أذهب لأدائه فإذا اجتزته عدت، وصرفت النظر عن امتحان مسابقة الأزهر، وإذا لم أجتزه بقيت لامتحان الأزهر. وكان أقرب معهد دينى، وأقرب مدرسة معلمين-على ذلك العهد-يقعان فى أسيوط. وكان هذا الحل مقبولا عندى، بل لم يكن ثمة حل آخر، إذ إن التعليم العام الابتدائى كان مستبعدا منذ البداية.

عهد ابن خالتى بى فى رحلتى الأولى خارج القرية إلى الشيخ محمد حسن، وهو طالب أزهرى متقدم يمت إلينا بقرابة «بعيدة». وقد، سافر خصيصا من أجلى، وتولى رعايتى، وبذل غاية الجهد فى الترويح عنى.

ركبت القطار للمرة الأولى فى حياتى، وكان ذلك ذات مساء صيفى (أو خريفى) إذ لحقنا به فى طهطا حوالى الرابعة (أو الخامسة) عصرا، تاركين جهينة فى الضحى (لا يفصل بين جهينة وطهطا أكثر من خمسة عشر كيلو مترا). كان شعورى مزيجا من الفرح، والخوف، والترقب. وكنت-كالأطفال-أسأل عن كل شىء، والشيخ محمد حسن يجيب فى صبر. وقد توالت المحطات بطيئة فانشغلت بقراءة أسمائها، وملاحظة حركة

الباعة على الأرصفة. وبين محطة وأخرى كنت أشغل نفسى بعد أعمدة التليفونات التى كان يبدو وكأنها تجرى إلى الوراء، وحين هبط الظلام-وكنا لا نزال فى الطريق-وجدت وحشة شديدة فى رحلة القطار، وأنسا شديدا حين تقترب أضواء المحطات. وحين وصل إلى أسيوط هالنى كبر محطتها بالقياس إلى غيرها من المحطات التى مر بها القطار فى الطريق إليها. كان الرصيف واسعا وممتدا، وكانت المصابيح المكورة تتجاور مضيئة بكاملها فتحول الليل إلى نهار. وقد اجتزنا الباب الحديدى للدرجة الثالثة فكنا فى الميدان فى ثوان. وكان الميدان واسعا، وحركة المركبات والناس فيه حية إلى أبعد حد، وكان هذا كله شيئا جديدا علىَّ. وقد تراوح إحساسى بذلك بين الفرح الغامر بعالم النور، والخوف الدفين من الضياع. وأحسست بلوعة خفيفة لفراق القرية والأهل، واحتلت صورة أمى مركز هذه اللوعة.

تأرجحت العربة «الكارو» بمتاعنا الخفيف فى شارع رياض بالحمراء-وهى الجزء الواقع شرقى المحطة فى اتجاه النيل-فى الطريق إلى المعهد الدينى، وسرت والشيخ محمد حسن وراءها فى يقظة كاملة. كان الشارع مضيئا وهادئا، والجو

لطيفا، وقد تحركت رءوس الأشجار الضخمة ملتمعة تحت ضوء المصابيح العالية، وقد قطعنا الشارع إلى آخره ثم انحرفنا يمينا فى شارع البحر، وبعد وقت قصير واجهنا المعهد الدينى. اجتزنا إليه حديقة كبيرة، ودلفنا من بابه الحديدى الهائل إلى ممشى شبه مرمرى وسط حديقة داخلية رائعة، فواجهنا المسجد، ومررنا بالمبنى الدراسى على اليمين، ثم انعطفنا يمينا قبيل المسجد لندخل مبنى السكن. كان المعهد آية من آيات المعمار العربى، وفنا فريدا فى بابه لم أر مثله من قبل، ولا رأيت مثله من بعد فى تطوافى الواسع (لا أستثنى من ذلك سوى بعض البنايات المشهورة فى باريس ولندن ومدريد، وهى المدن الأوروبية الكبرى الثلاث التى زرتها فى حياتى).

حططنا رحالنا فى القسم الداخلى للمعهد الدينى، واستمتعنا بالراحة فى المطعم الفسيح بالدور الأرضى نهارا، والنوم على الأسرة الوثيرة فى الطوابق العلوية ليلا، وكانت لفتة غريبة أن يستضيف المعهد الدينى أناسا لا يعرف بعد ما إذا كانوا سيصبحون من طلابه أم لا.

وفى الأمسيات كان الشيخ محمد حسن يأخذنى للتعرف على المدينة المزدحمة، ويرفه عنى بالنزهة ناحية «الخزان» فى

الجانب الشرقى للمدينة، حيث تجثم قصور الأثرياء بحدائقها الواسعة، وجوها الارستقراطى الهادئ. وكانت روائح الزهور المختلفة تصل إلى أنفى من هذه الحدائق فتنقلنى إلى آفاق خيالية بعيدة. والشىء الوحيد الذى كان ينغص علىَّ، وعلى الشيخ محمد حسن، أنه كان يسألنى أحيانا-ونحن نتمشى فى المدينة أو خلال العشاء-عن بعض الموضوعات التى يمكن أن أسأل عنها فى الامتحان الوشيك، ولما كنت أعجز عن الجواب كان يعتريه ويعترينى حزن بالغ.

أديت امتحان المسابقة للقبول فى المعلمين بذهن شارد، وكان الامتحان أصعب كثيرا مما قدرت، فقد سئلت عن مسائل فى اللغة العربية ليس الحال والتمييز أصعبها. وقد جاءت النتيجة مخيبة لأملى. ولا أذكر أننى حزنت فى حياتى حزنا كالذى حزنته ليلة ظهور النتيجة ورسوبى. وحين أسترجع ذلك الآن أقول لنفسى : إننى لو كنت نجحت فى ذلك الامتحان لانتهى بى الحال إلى أن أكون مدرسا إلزاميا، وأنا الآن أستاذ فى الجامعة! ولكن حتى ذلك - والحق يقال - لا يجلب لى السلوى الكاملة، فهل أستطيع أن أقطع أننى الآن أكثر سعادة من مدرس ابتدائى فى قريتى؟

وكان لابد من البقاء لدخول مسابقة قبول المعهد الدينى. وقد اجتزت امتحانها بنجاح، وعدت إلى القرية والظفر يملأ قلب الشيخ محمد حسن فرحا، فى حين كان شعورى مختلطا. وقضيت المدة الباقية على افتتاح الدراسة مشغولا بأمر «الكسوة». كانت الأزمة الاقتصادية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية أزمة طاحنة، وقد ترددت مع ابن خالتى على طهطا لتفصيل حذاء وجبة، وشراء العمة ولوازمها، وأصبحت مستعدا. قال كل من رآنى فى هيئتى الجديدة إننى كنت نظيفا ومرتبا، وفرحت أمى وإخوتى البنات فرحا عظيما.

تجمع الأزهريون من أبناء قريتى فى عدد هائل صباح الخميس السابق على بدء الدراسة، وأخذ كل طريقه إلى طهطا بوسيلته الخاصة. وأذكر أننا قطعناها-أنا وأخى وابن عم أعلى لنا-على حمار، وذلك لنلحق بقطار الرابعة عصرا. وقد قضيت الوقت الطويل-ما بين وصولنا إلى المحطة ووصول القطار-أتمتع برؤية الغادين والرائحين على الرصيف ليلحقوا بالقطارات المتجهة شمالا إلى أسيوط وجنوبا إلى سوهاج، وسحرنى الهدوء الذى يشبه هدوء قريتى فى الفترات التى تخلو

من وصول القطارات، كما سحرنى صوت العصافير التى تجمعت فوق الأشجار المعمرة الضخمة التى تظلل المحطة. ومع أننى كنت قد ودعت أمى وإخوتى فى الصباح بعين دامعة فقد استعدت هدوئى مع الظهيرة، فشغلتنى آمال المستقبل، وأحاطنى اهتمام زملاء أخى الأكبر بى بنوع من الطمأنينة النسبية، ثم جرت الرحلة على النمط الذى أعرفه، ولم يكن شىء منها – هذه المرة– غريبا علىَّ.

استقبلت الدراسة فى معهد أسيوط الدينى بشهية مفتوحة. وقد اكتشفت بعد فترة قصيرة أننى لا أميل إلى الفقه أو الحساب، فى حين أتشرب الشواهد الشعرية فى النحو تشربا. وأما الرسم فقد تمت القطيعة بينى وبينه فى مرحلة مبكرة جدا إثر القصة التالية لى معه : كان شقيقى الأكبر يشاركنى المبنى الدراسى ذاته، ولم يكن يرى أننى محتاج إلى نقود فى جيبى طالما كان من المؤكد أنه سيلتقطنى إثر انتهاء الدروس. ولم أر أنا هذا – بدورى–غريبا، ولا طلبت أن يكون معى نقود خاصة بى. وفى أحد الأيام الأولى لبدء الدراسة– وكنت قد اتخذت مقعدى فى الصفوف الأولى من الفصل الدراسى، وبدوت فى جبتى الجديدة

وعمامتى الجديدة وحذائى الجديد – فى أبهى نظام، دخل محرم أفندى مدرس الرسم، وأمر كل طالب أن يذهب «الآن» إلى مكتب الملاحظ على أفندى، ويبتاع كراسة للرسم بخمسة قروش. وقد تدافع الطلاب خارجين من الفصل وعائدين إليه وبقيت فى مكانى. وحين استحثنى محرم أفندى على الذهاب لم أجد بدا من أن أهمس له بالحقيقة، ولكنه آثر أن يجعلها فضيحة علنية فقال بأعلى صوته :«بقى يا أخى كل الوجاهة دى ولا فيش فى جيبك شلن؟» ولم أسمع–ولم أر– كيف كان رد فعل الطلاب ؟ فقد أصبت بحالة شلل فى الحواس. وحين رأيت أخى فى الفسحة انفجرت له فى البكاء، وكلمته كلاما غاضبا مختلطا عن الموضوع، وعن تقصيره فى حقى بتركى دون نقود خاصة. وقد أسرعت إلى حجرة على أفندى وابتعت الكراسة، ولكن بعد فوات الأوان. ولم أقبل بعد ذلك على الرسم قط باعتباره موضوعا دراسيا. حقا إننى أحبه فنا، وأقرأ عن مدارسه، وأزور المتاحف، ولكننى – من الناحية العملية – لا أستطيع ضبط خط، أو رسم زاوية!

وفى امتحان النقل من السنة الأولى الابتدائية فى معهد أسيوط الدينى حققت نجاحا عظيما فى كل المواد – ما عدا مادة

الرسم بالطبع – وكان ابن خالتى قد بذل لى مساعدة عظيمة فى مادة الحساب، وهى مساعدة كان يقدمها لكثير من أبناء القرية الذين هم فى مثل حالتى دون مقابل !. وأذكر أننى خرجت من مادة الإنشاء فى هذا الامتحان منتشيا لأننى استطعت أن أستخدم بيتا من الشعر كنا درسناه فى مادة النحو هو :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وأذكر كذلك الوقت الجميل الطليق الذى قضيته فى انتظار أن يفرغ أخى من امتحانه حتى نعود معا إلى القرية. كنت أتجول فى أسيوط بحرية تامة، وأنفق من المال القليل الذى يضعه أخى فى يدى، وأملأ رئتى بعبير الزهور المتفتحة فى حدائق الفيلات الخاصة الممتدة على طول النيل. كنت فى فترة المراهقة، ممتلئا بالحيوية، وكنت محتاجا إلى متنفس، لذا فقد أطلقت العنان لخيالى، وحلمت بمستقبل ملئ بالإنجازات الفكرية والعاطفية. وكنت أدرك –حتى فى تلك السن المتقدمة– أن أسيوط أصغر من أن تحقق لى ما أصبو إليه.

وفى السنوات الثلاث التالية جرت حياتى على الوتيرة ذاتها، ولكن أشياء مهمة جدت فى نهايتها، منها معرفة الطريق إلى مكتبة البلدية فى أسيوط، وكانت تسمى مكتبة «الأمير فاروق». كان مجرد جلوسى فى قاعة عامة للقراءة جديدا ومثيرا؛ فقد كانت المرة الأولى التى أرى فيها مثل هذا العدد الهائل من الكتب، مجلدا بنفس الطريقة، ومرتبا ترتيبا جميلا، وقد سلطت عليه الأضواء الباهرة فبدا عالما حيا مجسدا له نظامه ونفسه وحضوره.

وكنت فى بدء ترددى على المكتبة ألقى معارضة من أخى بتحريض من بعض زملائى! ولكنه لم يلبث أن تخلى عن هذه المعارضة حين لاحظ أن الوقت الذى أقضيه فيها لا يؤثر على مراجعتى لدروسى.

كنت فى البداية أكتفى بالجلوس، متقبلا لما يعرضه علىَّ الموظف من كتب، وقد قدم لى بعض روايات شكسبير المترجمة المبسطة، وبعض كتب كامل كيلانى للأطفال، فلم أستسغ منها شيئا. وأذكر الدهشة التى عرته حين طلبت منه ذات أصيل أن يحضر لى كتاب «مجنون ليلى» لشوقى !

وجدت صعوبة بالغة فى متابعة معانى الشعر فى «مجنون ليلى»، ولكننى تمتعت عن طريق التعاطف الوجدانى مع محنة قيس وحرمانه. كنت مفتونا بمثاليته المفرطة، وحظه العاثر ، وقد تسللت الأشعار إلى قلبى عن هذا الطريق، وحفظت منها قدرا صالحا. وقد أغرانى «مجنون ليلى» بالانتقال إلى مصرع كليوبترا، ولكننى لم أستطع «النفاذ» إليها، ووجدت فى الأسماء والإشارات التاريخية صعوبة بالغة. وتنقلت من كتاب إلى كتاب، وكنت أقرأ «للمتعة لا للفائدة» وبطريقة عشوائية تماما !

وفى تلك الفترة ترددت على سينما أسيوط الشتوى، وكان الطلاب يسمونها «سينما أودولف»، وزرت القاهرة خلسة من أخى، وكانت مغامرة ندمت عليها طوال حياتى. وأتذكر دائما الإزعاج الذى سببته له بذلك، ولا أستطيع أن أغفر لنفسى هذا الخطأ.

وحين أنهى أخى دراسته الثانوية، وتأهب للذهاب إلى القاهرة ليلتحق بكلية اللغة العربية بالأزهر، كنت فى الأولى الثانوية، وتأهبت للرحيل معه إلى القاهرة، الجنة الموعودة التى

حلمت بها سنوات طويلة. كنت أرى القاهرة فرصة للاقتراب من عالم المشايخ الكبار الذين كنت أسمع عنهم سماعا، وعالم الأدباء الكبار الذين كنت أقرأ لهم. كانت القاهرة عندى هى مدينة طه حسين والعقاد ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم(وكنت – وأنا فى حوالى السابعة عشرة من عمرى قد وقعت فى غرام أم كلثوم على نحو مطلق!) ومدينة الممثلين والممثلات الذين كنت أراهم على الشاشة، ومدينة النيل العريض الممتد، ومدينة الصحف والمطابع (وكان قد أصبح للكلمة المطبوعة عندى سحر عجيب). كنت أتخيل القاهرة عالما بدون آلام أو مشقات. وقد قضيت صيف ١٩٥١ كله فى جهينة أحلم بالانتقال إلى ذلك العالم الجديد وأتهيأ له.

★ ★ ★

القاهرة : القراءة المنتظمة

حين وصلت إلى القاهرة في خريف ١٩٥١ تلقيت صدمتين، الأولى أنني انتقلت من معهد أسيوط، ذلك البناء الرائع الذى تحيط به الحدائق ويلفه الأريج، إلى معهد القاهرة، ذلك البناء الكالح الذى تحيط به أكوام الصفيح، ويغطيه تراب جبل الدراسة، والثانية أننا بعد السكن إما فى داخل المعهد-حيث النظافة والاتساع والحرية-أو فى بعض شوارع «الحمراء» الواسعة، أصبحنا نسكن فى حارة من حى شعبى !.

ومع هاتين الصدمتين-أو مع هذه الصدمة المزدوجة فى الدراسة والسكن-بقى الخيال مفتوحا على كل عناصر الحلم الذى نما معى منذ الصغر، بأن القاهرة هى جنة الفردوس، كما بدأت مرحلة النضج الذهنى الحقيقى فى حياتى.

تعرفت على زميل من زملائى فى الفصل يرتدى الزى الإفرنجى-وكانت مسألة الزى لا تزال لذلك الحين موضع أخذ

. ورد بين الأزهريون هو عبد الرحمن حسين (ابن تاجر صعيدى , من تجار حلقة الأسماك) فقدمنى بدوره إلى صديق له يرتدى الزى الأزهرى، ويسبقنا بسنوات فى الدراسة، هو محمد أبو المجد (ابن شيخ لعله من موظفى وزارة الأوقاف). كان محمد أبو المجد قارئا واسع القراءة، وسرعان ما أصبحنا-ثلاثتنا-رفقاء درب واحد، وأحلام مشتركة، وجولات واسعة فى قاهرة ما قبيل ٢٣ يولو سنة ١٩٥٢.

وكان قلب القاهرة الأزهرية النابض فى ذلك الوقت دون جدال هو مقهى الفيشاوى، وقد أصبحنا-تبعا لمحمد أبو المجد-من رواده، وفيه قضينا ساعات ممتدة، وقرأنا كتبا لم أكن قد سمعت بها من قبل، ورأينا أدباء كنت أسمع بأسمائهم سماعا. وقد اتسعت خطواتى فى صحبة هذين الصديقين-وأغلب الظن أنهما ولدا فى القاهرة؛ فقد كانا على معرفة واسعة بها-فبلغت «حديقة الأزبكية»، «ودار الكتب».

كانت « حديقة الأزبكية»-لذلك العهد-جنة غناء، مسورة، لها «رسم دخول»، تنتشر فيها الأرائك النظيفة. وكان سور الكتب موجودا، ولكنه لكم يكن واسعا. وكنا-فى أيام الإضراب عن

الدراسة–وما كان أكثرها–نأوى فيها إلى ركن مشمس، ومعنا كتاب–كان فى الغالب–من اختيار محمد أبو المجد–ونقرأ قراءة جهرية. وفى بعض الأحيان كنا نأوى إلى «دار الكتب» فيقرأ كل واحد منا ما يشاء.

فى «دار الكتب» أعدتُ قراءة المنفلوطى، وقرأت بعض كتب طه حسين، ولم تستهونى قصصه–بل لم يكن الأدب القصصى كله قد استهوانى لذلك العهد–ولا كتبه الإسلامية، وقرأت بعض كتب الزيات، وكانت شهرته واسعة بسبب مجلة « الرسالة»، وقرأت بعض كتب أحمد أمين، ولم أستطع «التفاهم» مع الرافعى قط، وقرأت بعض كتابات محمد حسين هيكل (ولم أقرأ «زينب » فى تلك الفترة)، وقرأت قليلا لسلامة موسى. وفى أعوام تالية قرأت لمارون عبود، وميخائيل نعيمة، ومحمد مندور.

وفى الشعر قرأت قراءة واسعة، ولكن دون خطة واضحة. قرأت شوقى كله، ولم يرق لى حافظ كثيرا، كما لم يرق لى البارودى. أما على محمود طه فقد سحرنى تماما، وكانت دواوينه تتوالى بطبعاتها الرائعة، كما كان محمد عبد الوهاب قد لحن «الجندول» و «كيلوباترا» من شعره، فشدنى ذلك إلى

صاحبهما لولعى القديم بالغناء. وقرأت «ليالى القاهرة» لناجى، وبعض شعر محمود حسين إسماعيل. وقرأت معظم دواوين شعراء المهجر الشمالى، ووجدت لهم فى نفسى سحرا غريبا. ثم غزت الجو حركة الشعر الجديد فأغرمت بها، وداومت على حضور الندوات الشعرية فى «الشبان المسيحية» و «الشبان المسلمين» و «نقابة الصحفيين». ولم أكن أتصور أبدا أنه سيأتى اليوم الذى أنتقل فيه من صفوف المستمعين إلى صفوف المسهمين فى تلك الندوات!

أما قوالب الأدب الأخرى-الرواية والمسرحية والقصة القصيرة-فقد تأخر غرامى بها؛ كنت أقرأ مجلة «الرواية» إلى جانب مجلة «الرسالة» من زمن بعيد، وزدت فى فترة القراءة المنتظمة-فقرأت بعض كتابات السحار وعبد الحليم عبد الله، والعجيب أننى لم ألتفت إلى نجيب محفوظ فى تلك المرحلة (ولم أكن أدرى أنه سيأتى يوم أكتب عنه فيه كتابا كاملا!).

وفى القصة القصرة قرأت لمحمود تيمور، ولم يكن يوسف إدريس قد خطف الأبصار بعد. وفى المسرحية قرأت بعض ما كتب فيها توفيق الحكيم، وكان أشهر من يكتب فى هذا القالب آنذاك.

كنت أقصد شارع الترعة البولاقية عصر كل خميس-منزل عبد الرحمن حسين وأسرته-من حي الأزهر حيث سكننا، فأجده متأهبا، ونأخذ طريقنا مشيا على الأقدام إلى ميدان «باب الحديد»، ثم بالترام إلى شارع بولاق الجديد-سكن محمد أبو المجد وأسرته-فنجده متأهبا للنزول معنا، ونعبر- ثلاثتنا- كوبرى أبو العلا إلى الزمالك، فنقوم بسياحة حرة، رائدنا فيها محمد أبو المجد. وكان جو النظام والهدوء والنظافة فى حى الزمالك يعيدنى إلى جو القرية والحقول ، وإلى جو الخضرة وجمال المعمار فى معهد أسيوط، فتنتشى روحى. وكانت المعلومات التى يمدنى بها محمد أبو المجد عن هذا الحى-سكن طه حسين ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومصطفى إسماعيل، وتجمع الفنانين فى مقرهم بمدرسة الفنون الجميلة-تحملنى إلى عالم مسحور. كان محمد أبو المجد أزهريا فنانا، رومانسى النزعة، رهيف الحس، مجاملا، ساحر الحديث. وكان يحثنى على توسيع دائرة القراءة، ويستشهد على ضرورة ذلك بقراءات العقاد التى شملت عالم الحشرات. وكانت فسحة الخميس تنتهى عادة بالعشاء فى مطعم متواضع، يعود بعده كل منا إلى سكنه، وكنت أحس وأنا عائد منها أن روحى قد غسلت غسلا، فأقبل طول

الأسبوع بشهية على استذكار علوم الأزهر، وعلى القراءة فى «دار الكتب».

وقد حاولت فى تلك الفترة-وبتشجيع من عبد الرحمن حسين-تعلم اللغة الإنجليزية، كما حاولت ممارسة رياضة كرة السلة، ولكننى لم أحقق تقدما فى الناحيتين فتوقفت المحاولة. وفيما عدا ذلك لم أجد صعوبة كبيرة فى تحصيل المواد الأزهرية-التى كان طابعها الحشو والتكرار-فحققت فى السنوات المتتابعة نتائج جيدة فى الامتحانات، وأولعت بالتعرف على أحياء القاهرة، والتعرف على المحافل الثقافية التى كانت نشطة جدا فى الخمسينيات. وكنت أسمع من محمد أبو المجد عبارة : «إن المشى فى شوارع القاهرة ثقافة» فآخذ العبارة بمعناها الحرفى، وأذرع شوارع المدينة بروح مستبشرة عالية.

ومع ثورة سنة ١٩٥٢ تغيرت أوضاع كثيرة، وقد فرحت بالثورة كما فرح بها الكثيرون من أبناء الشعب الكادحين، ولكنها لم تغير من اهتماماتى الخاصة شيئا. والحق أنه لم يكن لى اهتمام بالسياسة قط، ولا انتميت إلى جماعة-فى حياتى-أو حزب. وكنت أرى الطلاب من شتى الجماعات والأحزاب

يتشاجرون أيام الإضرابات، كما كنت أرى زعماءهم يساقون إلى أقسام البوليس، فأتعجب للوضع الغريب الذى يضعون أنفسهم فيه، وأمضى فى سبيلى. كنت أعتقد أن أشرف شىء فى هذه الدنيا أن نطلب العلم لذات العلم، ومع أن الطريق-فى تلك الأيام لم يكن واضحا تماما أمامى فإن ذلك لم ينقص من حماسى شيئا، فعشت متفائلا، أستريح حين أضيف إلى معرفتى شيئا جديدا، وأحزن على اليوم الذى يضيع هباء. كنت أعمل كثيرا، وأحلم كثيرا، وأعيش حياة مادية بسيطة جدا، ولم أضق مطلقا بحياتى التى هى أقرب إلى التقشف، ولا أحسست مطلقا بالحرمان.

وفى هذه الفترة- نهاية المرحلة الثانوية-تعرفت على أحمد مختار عمر، ومحى الدين فارس (الشاعر السودانى). وقد شجعنى محى الدين فارس على قراءة أشعار لم يكن لى بها عهد، وقدم لى مختارات واسعة من شعر نزار قبانى مكتوبة فى كراسة بخط اليد، وصحبنى إلى بعض الجلسات الأدبية الخاصة، وحثنى على وضع «الشاعرية» الكامنة فى نفسى موضع التحقيق. وحين كتبت بعض القصائد استجابة له سر سرورا

عظيما، وأخذنى إلى الشاعر الأزهرى محمد الأسمر–وكان يشرف على الصفحة الأدبية لجريدة «الزمان»–فنشر لى فى صفحته بعض القصائد، وكان يشترط أن تكون من الشعر الموزون المقفى. وحين حصلت على الثانوية الأزهرية بتفوق فى نهاية تلك الفترة شعرت أن شيئا من عالم «الأمانى الغامضة» يدنو من متناول يدى.

* * *

دار العلوم : الأحلام الغامضة

وضعني الحصول على الثانوية الأزهرية في مفترق طرق أربعة : طريق كلية الشريعة، وطريق كلية أصول الدين، وطريق كلية اللغة العربية، وطريق كليه دار العلوم. كان السواد الأعظم من الأزهريين في قريتي يلتحق بالشريعة وأصول الدين، لينتشر بعد ذلك في الريف، مشتغلا بالوعظ، وإمامة المساجد، والتدريس، وكانت الأقلية تلتحق بكلية اللغة العربية، وكان ينظر إليها الأزهريون نظرة خاصة لأنها القرين والمنافس لدار العلوم. أما دار العلوم نفسها فكانت حلم الندرة من الأزهريين الطموحين، عشاق الثقافة، الخياليين، الذين كانت تحملهم طموحاتهم أحيانا إلى تصور عبور البحر إلى أوروبا، وتجديد مغامرة رفاعة الطهطاوي وطه حسين، الصعيديين العريقين.

كان محمد أبو المجد قد سبقنا إلى واحدة من الكليتين (الشريعة أو الأصول-لا أدري) وكان عبد الرحمن حسين يفكر في

«اللغة العربية»، أما أنا فقد تمكنت دار العلوم من نفسى، وأصبحت أملا عزيزا.

وكنت أسمع أن دار العلوم «تغربل» الأزهريين بغربال ضيق فى امتحان مسابقة شفوى وتحريرى. وقد قضيت عطلة الصيف فى عمل قليل، وخيالات واسعة، من أجل هذه المسابقة، وتقدمت إليها فى خريف ١٩٥٤ وأنا بين اليأس والرجاء.

وحدث - هذا العام ولأول مرة - أن ألغى امتحان المسابقة المكتوب، وبقى الشفوى وحده، فوضعت يدى على قلبى، لأننى كنت قد عَوَّلت على الامتحان الكتابى فى تحقيق أملى. أما الشفوى فقد كانت تحاك حوله الأقاويل !

كان الطالب يمر فى امتحان المسابقة بثلاث لجان : لجنة للغة العربية، ولجنة للقرآن وعلوم الشريعة، ولجنة للاختبار الشخصى، وقد استغرق بقائى أمام اللجان الثلاث حوالى ثلاث ساعات. وكانت لجنة اللغة العربية التى جلست إليها مكونة من أحمد الشايب وعبد الرحمن أيوب، ولجنة الشريعة من محمد الزفزاف (وشخص آخر)، ولجنة الاختبار الشخصى من إبراهيم أنيس ومحمد هنداوى. وقد طلب إلىَّ فى الأولى أن أقرأ من

«البيان والتبيين» وفى الثانية أن أتلو من القرآن غيبا، وأما الثالثة فقد طوفت بى فى كل ما يمكن أن يخطر على البال. وحين أعلنت النتيجة كنت من أوائل الناجحين !

كنت آنذاك أسكن مع أخى وزملائه فى حارة عبد الباقى، التى تصل الحلمية الجديدة بدرب الجمامين، وكانت دارالعلوم فى مبناها القديم فى المنيرة غير بعيد. وكان محمد طربوش- وهو من أصدقائى فى معهد القاهرة وكان قد التحق بدار العلوم-يسكن شارع شيخون بالقلعة. وكان ينحدر كل يوم إلى حارة عبد الباقى فأنضم إليه من منزلنا، ونمشى معا إلى دار العلوم عبر شارع المبتديان. كان طربوش صاحب حديث حلو، وثقافة متنوعة، وقد سعدت بصداقته طيلة فترة الدراسة فى دار العلوم، وبعد التخرج تفرقت بنا السبل، ثم سمعت أنه اتهم فى قضية من قضايا الإخوان المسلمين، ثم انقطعت عنى أخباره ستة وعشرين عاما، كنت فيها أحس دائما بالخجل لأننى لم أسع إليه فى محنته، وفى سنة ١٩٨٤ (وكنت وكيلا لكلية دار العلوم) دخل علىَّ الكهل الوسيم متفرسا، وخلع نظارته الشمسية ليساعدنى على معرفته. كان هو محمد طربوش فى روحه

القديمة وسحر حديثه، وقد استمتعت بجلسة طويلة معه، وترك لى عنوانه، ومضى على وعد باللقاء!

كانت دار العلوم قد تخلت عن تقاليدها العتيقة فى قصر القبول على الثانوية الأزهرية، وبدأت تقبل من حملة الثانوية العامة-بنين وبنات-وكان ذلك فى العام السابق على التحاقى بها سنة ١٩٥٣، وقد خصص للبنات مبنى مجاور فى «الحقوق الفرنسية»، وإن جئن إلى المبنى العام لأغراض دراسية واجتماعية. وكان وجودهن شيئا غريبا. ولكن الحال سرعان ما تبدل، ولم تمضى سنة أو سنتان على التحاقى بالكلية حتى أتين إلى المبنى العام، وشاركن الطلاب فى المكتبة أولا، وفى الفناء، ثم فى قاعات الدرس. ولا أذكر أن موضوع الاختلاط قد سبب لى «ارتباكات» كثيرة، كما حدث لغيرى من الزملاء.

طرأ على حياتى فى دار العلوم تغيرات أساسية، فأصبح جزء من وقتى مصروفا فى النشاط الثقافى، ولم أكن أعرف ذلك فى الأزهر. كانت فكرة «اتحاد الطلاب» قد بهرتنى، كما بهرتنى فكرة الاشتراك فى ندوات أدبية يمكن أن تتعدى جدران دار العلوم، وتصل إلى حد «البث» فى الإذاعة. وكان نجم النشاط

الثقافى-دون منازع-فى دار العلوم شابا نحيلا وسيما ذا خيلاء، شاعرا رقيقا عميق الصوت، فصيحا فى الكلام على الرغم من أنه ليس أزهريا، هو فاروق شوشة!

كان فاروق شوشة شخصية مثيرة للإعجاب والغيرة. وقد اقترب منه بعض الناس وابتعد آخرون. ولم تكن التجربة الأولى فى احتكاكى به مشجعة، ولكن الود نما بيننا بمرور الأيام. وقد اكتشفت أننى «أسأت فهمه» حين كنا طلابا. كان إذ ذاك يتمتع برجولة مبكرة،يجعل عالمه عالم الأساتذة والأضواء، وكنت أقرب إلى العزلة، قلقا، مترددا، لذا لم تتح لى قط فرصة التعرف الكامل عليه إلا بعد سنوات طويلة من ذلك التاريخ.

وأتذكر أول مرة رأيته فيها، وكان ذلك فى «جمعية الشبان المسيحية»، ولم أكن قد التحقت بعد بدار العلوم. كانت المناسبة ندوة شعرية، وكنت أجلس فى الصفوف الخلفية مستمعا، على حين كان هو يجلس فى الصفوف الأمامية، وقد جاء إليه أحد شعراء الندوة وكلمه باهتمام، وبدا هو متماسكا إلى أقصى حد. وكانت المرة الثانية التى ألقاه فيها فى دار العلوم، وكنت فى السنة الأولى، وكان هو فى الثالثة ومسئولا عن «مهرجان الشعر»

(كما كان يسمى). لقيته في الفناء قبيل «موعد المهرجان» وقدمت إليه قصيدة (وكانت قد تجمعت لدى كراسة صغيرة من الشعر بعضها نشر فى «الزمان» وبعضها لم ينشر) فاستقبلنى بتحفظ شديد. وحين ظهر الإعلان عن المهرجان فوجئت باسمى يتصدر القائمة فسررت، وتبدد من نفسى ما كنت أحسسته حياله من ضيق.

ويوم المهرجان تألق فاروق شوشة كما لم يتألق أحد، وجاء بعده شعراء آخرون منهم محمد إسماعيل هانى وإسماعيل الصيفى، ولا أستطيع الآن أن أتبين كيف كان وقع قصيدتى على «الجمهور»، ولكننى فى الحقيقة كنت مكتفيا بأن أخرج من عالم المستمعين إلى عالم المتحدثين.

بدت المناهج التى تدرس فى دار العلوم لعينى خليطا عجيبا؛ كان ثمة المواد التى درسناها فى الأزهر، وأعدنا دراستها مثل النحو ومواد الشريعة، وكان ثمة مواد لم نحصل منها فى الأزهر سوى قدر يسير كتاريخ الأدب، ومواد جديدة تماما كفقه اللغة واللغات السامية والشرقية. ثم كان هناك قدر يسير من اللغات الأوروبية. ولكن الذى بهرنى حقا أن كثيرا من

الأسماء التى كنت أزها فى المجلات وفى فهارس دار الكتب، أصبحت الآن أراها رأى العين : إبراهيم اللبان، وإبراهيم أنيس وعلى الجندى (الشاعر)، وعباس حسن، وزكى المهندس، وعمر الدسوقى، ومحمود قاسم. كانوا يدرسون لطلابهم ما يكتبونه بأقلامهم، ولم يكن ما يدرس من تأليف «الموتى» كما كان عليه الحال فى الأزهر.

وكان ثمة طائفة من هيئة التدريس الشبان الذين عادوا من البعثة إلى أوروبا، فجددوا فى نفسى الفكرة الساحرة التى تجعل طالب الأزهر يعبر البحر على مثال ما فعل الطهطاوى، والعدل، وضيف، وطه حسين.

وكان من الأفكار الساحرة أيضا فكرة «نظام المعيدين» الذى يسمح للطالب «النابه» أن يظل فى كليته بعد التخرج فيتأهل بالماجستير والدكتوراه ويلتحق بهيئة التدريس. وكان مثيرا جدا لخيالى مجرد تصور طالب العام الماضى يجالس هذا العام أساتذته على استحياء، لينضم إليهم فى حمل رسالة الكلية بعد سنوات قليلة.

وبدأ القلق يجتاحنى؛ إن عالم النشاط الثقافى يتطلب

التردد على الندوات، وقضاء الوقت الطويل فى صحبة الزملاء، على حين أن تحقيق التفوق الدراسى يقتضى العكوف على العمل، وعدم تبديد الوقت. وكنت أجد نفسى مدفوعا إلى الأولى برغبة طبيعية فى أن أرى أشخاص الشعراء والنقاد وأخالطهم، وأخرج من محيط «الكتلة الطلابية المجهولة الملامح»، كما أجد نفسى مدفوعا إلى الثانية برغبة شديدة فى أن أجد طريقى فى التفوق لأنه الوسيلة إلى تحقيق «المستحيل» : عبور البحر إلى أوروبا أو–على الأقل–طريق المعيدين. هذا فاروق شوشة يختار الطريق الأول دون تردد، وهذا أحمد مختار عمر يختار الطريق الثانى دون تردد. أما أنا فلم أختر طريقى بحسم طيلة سنوات دراستى فى دار العلوم. ولا أدرى الآن–وقد أخذت من كل جانب بطرف– هل اتبعت الطريق الصحيح؟ إننى على سبيل القطع لم أفعل شيئا يخالف طبيعتى، ولا أعتقد أننى ضيعت الوقت هباء فى لحظة من اللحظات.

مر العام الأول دون أن أحس أننى أقف–فى مواد دار العلوم–على قدم ثابتة. وجاء شهر إبريل فاخضرت الحديقة الصغيرة الداخلية فى دار العلوم كما أزهرت الأشجار الضخمة

فـى شـارع أمـين سـامـى، وكـان ذلك نـذيـرا بـتـوقـف الـدراسـة والاستعداد للامتحان. وأذكر أن ما صاحب ذلك من هـجمة الحر، وفـراغ الـكـلـيـة فـجـأة من الـطـلاب، قـد أصـابـنى بـوحـشـة غـريـبـة لازمتنى سنين طويلة، وكانت تعاودنى وأنا أعمل فى الكلية مدرسا، وأستاذا مساعدا، وأستاذا-كلما حل إبريل، وهب الـهواء الساخن، وخلا الفناء من الطلبة والطالبات، واحمرت رءوس الأشجار.

وفـى مـنـتـصـف مـدة الامـتـحـان-وكـانت حوالى الشـهـر-توفيت أمى فوضعنى موتها فى أول مواجهة مع الحزن الحقيقى. وقد أسرع أخى عائدا ليلحق بجنازتها، وبقيت أنا لأكمل الامتحان، ولكنه كان بقاء صوريا، فحين أعلنت النتيجة ظهر انهيار واضح ومطرد فى درجاتى وتقديراتى شمل كل المواد التى كان امتحانها يقع بعد تاريخ الوفاة. وبعد انتهاء الامتحان وعودتى إلى القرية زرت قبر أمى ذات أصيل حزين، وبعد شهور سجلت أحزانى فى قصيدة من الشعر الحر بعنوان «على قبر أعز إنسان» تقول أبياتها:

فى المساء

حيث لا صوت سوى ندب الرياح
فى البطاح
وأنينٍ خافت الوقع وأصداء نباح
قد كسا قريتنا شيب النهار
باصفرار
وعلى الأفق البعيد اصطخبت أمواج نار
والطريق الملتوى طال بأقدامى ودار
عائد من سفر مضن يغطينى الغبار
كنت قد فارقت أمى منذ عام
ودَّعتنى بالبكاء والدعاء
وملايين السلام
للحسين والإمام
وبعينيها رجاء
ولدى أخشى عليك
فى الزحام :
القطارات وأولاد الحرام
ها أنا ذا عائد من بعد عام

مجهدا أحمل همى

موت أمى

بيتنا يمعن فى صمت عميق

مثلما استسلم للموج غريق

كلبنا بالباب نائم

لم يحركه مجيئى

ولقد كان صديقى

طالما استقبلنى بعد الفراق

بالعناق

وعلى الصحراء نام الميتون

واستراح المتعبون

وأنا كالطيف سائر

فى المقابر

قد هدتنى قدماى

حين ضلت مقلتاى

وعلى القبر الذى ضم حياتى

وبقايا ذكرياتى

قد جثوتْ

وتنشَّقت التراب

وكئيبا عدت فى صمت وعاد

ذلك الليل يغطى كل شىء

بالسواد

نجحت فى امتحان السنة الأولى فى دار العلوم بتقدير «جيد». ولكن ذلك لم يرضنى، وإن لم يحزنى كثيرا. كان ضعف التقدير حجرا صغيرا احتوته بركة الأحزان الكبيرة التى كنت أعيشها بموت أمى. وحين بدأ العام الدراسى التالى كان أخى قد أنهى تعليمه، وعاد مدرسا فى الصعيد. وقد انضممت فى السكن إلى أختى التى كانت تعيش مع زوجها وأولادها الستة فى شقة صغيرة، ولكنها وفرت لى أقصى قدر من الرعاية، وأعانتنى بتبديد قدر من الوحشة التى حملتها من القرية، والتى زاد منها رحيل أخى وزملائه من القاهرة.

مضت حياتى فى دار العلوم متأرجحة، أقبل على بعض المواد وأرفض البعض، وأستريح إلى بعض الأساتذة، وأمج البعض، وأتمتع بصحبة أصدقاء معدودين، بعضهم من

«القدامى» الذين تعرفت عليهم فى المعهد الدينى، وبعضهم من «المحدثين» الذين تعرفت عليهم فى دار العلوم. كنت أتردد على الندوات الأدبية، وأقرأ فى دار الكتب بصفة منتظمة. وقد نشطت فى كتابة الشعر فكنت أكتب فى السنة ثلاث أو أربع قصائد، ولكن ولوعى بالتفوق الدراسى بدأ يتغلب بالتدريج على ولوعى بالشعر، فحين نجحت فى امتحان السنة الثانية بتقدير «جيد جدا» أحسست أن الظروف تضعنى على طريق جديد.

فى السنة الثالثة أصبحت ثانى اثنين من طلاب الليسانس الممتازة مع أحمد مختار. وكان نظامها يقضى بأن من ينجح فى السنة الأولى بتقدير «جيد»على الأقل، وفى الثانية بتقدير «جيد جدا» على الأقل (وياسبحان الله ! لكأن هذه الشروط كانت موضوعة لتنطبق علىّ) يصبح فى الثالثة من طلاب «الليسانس الممتازة»، فيتلقى عبئا دراسيا إضافيا فى الثالثة والرابعة، فإذا حقق فى السنتين «جيد جدا» على الأقل فى كل المواد العادية، والإضافية، حصل على «الليسانس الممتازة» بمرتبة الشرف، وإلا عاد إلى طلاب الليسانس العادية. وكان التعيين فى وظيفة معيد، والاختيار لعضوية البعثة يراعى فيهما أن يكون من طلاب «الليسانس الممتازة».

توثقت علاقتي بأحمد مختار وازددت قربا منه ؛ في دار الكتب وفي شوارع القاهرة ، وإن بقي هو عزوفا عن «تضييع الوقت» في التردد على الندوات الثقافية . وانقضت السنتان (الثالثة والرابعة) في لمح البصر. وقد سكنت في المنيل فصلا دراسيا واحدا عدت بعده إلى شقة أختي ، وشهدت الغارات التي كانت تشن على القاهرة لأول مرة في حياتي وذلك خلال عام ١٩٥٦.

وفي امتحان النقل من السنة الثالثة جلست في لجنة مع زميلة لي أصبحت في سنة ١٩٦٠ زوجتي. كانت فترة الامتحان عندي فترة القلق والتوتر والعواطف المثارة، ولكنني لا أذكر أنني طورت نحوها عاطفة ما في هذه المناسبة.

وكنت في تلك الفترة أتردد على «قهوة عرابي» في التوفيقية للاستماع إلى أم كلثوم مع عمر أبو العز ووجيه جلال، وكان عشق أم كلثوم قد غزا قلبي في فترة مبكرة حين كان صوتها يصل إليَّ من المقاهي أو البيوت وأنا جالس للمذاكرة في «المنتزه» الواقع خارج معهد أسيوط، أو عائد من مكتبة «الأمير فاروق» في شارع البحر الهادئ، أو جالس في مقهى من مقاهي شارع المحطة مع زملاء السكن في أمسيات الخميس. وحين اتخذنا لأنفسنا سكنا خارج المعهد أصبحنا –وقد تمكن العشق– نستأجر «راديو» ليلة الجمعة الأولى من كل شهر للاستماع إلى حفلتها الشهرية.

ومع محافظتى على شروط الليسانس الممتازة فى الانتقال من السنة الثالثة ازدادت آمالى فى التفوق، وقرب الامتحان النهائى التقيت بزميلتى مرة أخرى على أريكة خشبية عتيقة فى فناء دار العلوم، وتبادلنا حديثا عاديا جدا، وبعد الامتحان التقينا مرة أخرى، وافترقنا على وعد باللقاء بعد ظهور النتيجة، وسافرت الى جهينة، وانتظرت.

وبعد شهر من القلق والهواجس جاءتنى «البشارة» فى برقية من أحمد مختار تقول كلماتها (ولازلت أتذكرها !) :«ألف مبروك بمرتبة الشرف»»، فاحتفلت مع أصدقاء القرية، وهيأت نفسى للعودة إلى دار العلوم لأرقب عن كثب ما تفعله بى الأيام. وقد وجدتها صاخبة وحافلة بالأخبار المتناقضة : لن يعين أحد فى وزارة التربية والتعليم هذا العام، أو سيعين حاملو الليسانس الممتازة دون غيرهم (وكنا اثنين !)، أما التعيين فى وظيفة «معيد»»، وأما البعثة فقد بدوا أبعد ما يكون. ولم يكن بد من الانتظار.

فى هذه الفترة ذهبت إلى نادى «دار العلوم» فى مكانه : ١٩ ش سوق التوفيقية لأول مرة، ولم تمض فترة طويلة حتى أصبحت من رواده. وقد تعرفت هناك على مجموعة من الناس فى مقدمتهم الأستاذ محمد جبر، وهو معروف لدى أبناء دار العلوم

جميعا، وله ذكريات كثيرة من الماضى، يتحدث عنها فى الدفاع عن الحقوق «المهنية» لأبناء دار العلوم. وهو حلو اللسان، يبدى ودا للشباب، واستعدادا لمساعدتهم، ولا أنسى أبدا سعيه الناجح لإدخال ابنى أمين المدرسة الابتدائية بعد ذلك بسنوات عديدة، وكنا قد عدنا من الجزائر، وجوبهنا بالتعجرف البالغ من بعض الناظرات العجائز فى مدارس مصر الجديدة.

كنت كل مساء ألتقى بأحمد مختار على ناصية «حلاوة» فى العتبة–وقد أتى هو من مسكنه فى العباسية وأتيت أنا من بيت أختى فى شارع المعز لدين الله–فنذهب إلى النادى، ونقضى المساء، نسمر، ونتمتع بالألعاب البريئة، ونستمع إلى آخر الأخبار،ونلتقى بالزملاء، ونتعشى–أحيانا–عشاء خفيفا، ونترك النادى فى العاشرة، مشيا إلى ميدان العتبة حيث نفترق.

وفى أواخر الصيف وأوائل الخريف عين فى وزارة التربية من دفعتنا شخصان اثنان (مختار وأنا)، وكان تعيين مختار فى النقراشى (وهى المدرسة التى كان عين فيها فاروق شوشة بعد التخرج وقبل انتقاله إلى الإذاعة) وتعيينى فى منطقة الإسكندرية. كان ذلك مخيبا لآمالى لأننى سأضطر إلى ترك

أختى، ولم أكن قد تعودت على العيش بمفردى، ولأنه يحرمنى من البقاء فى القاهرة، والتسجيل للدراسات العليا حين يبدأ العام الدراسى.

وضعت ملابسى القليلة، وكتبى القليلة، فى حقيبة واحدة، ووصلت إلى «محطة مصر» بالأسكندرية ظهيرة يوم من أواخر سبتمبر سنة ١٩٥٨. وحين تركت رصيف المحطة إلى فنائها لفحت وجهى نسمة لها وقع ثقيل لا عهد لى به، وشممت رائحة غريبة جديدة علىَّ، ولم أكن إلى ذلك العهد قد زرت مدينة ساحلية قط. وتركت حقيبتى لحمَّال طلبت إليه أن يرشدنى إلى فندق قريب متواضع فذهب بى إلى مبنى متداع يحمل لافتة ضخمة. وبعد راحة قصيرة خرجت أسعى إلى معرفة سكن قريب لى كان طالبا فى حقوق الإسكندرية، وحين اهتديت إليه فى الإبراهيمية كان الجوع قد بلغ بى أشده، فلم أكن تناولت طعاما منذ الإفطار الخفيف فى الصباح الباكر. وقد خرجنا إلى مطعم قريب لتناول الطعام، وحين تركناه كان الظلام قد حل. وسلكنا شوارع الإبراهيمية الفرعية الضيقة، وفجأة اتسع المنظر وسمعت صوت زمجرة، ولفحنى الهواء، وبعد ثوان كنا نواجه البحر. لم أر سوى

ذرات الأمواج المزبدة المتسابقة إلى الشاطئ، وبعض أضواء تلتمع من بعيد.

تركت الفندق وقضيت الليل عند قريبى، وفى الصباح ذهبت إلى مدرسة العباسية الثانوية، أحمل رسالة تقديم من أستاذى المرحوم الدكتور عبد الرزاق حميده إلى ناظرها الأستاذ محمود راشد، الذى أخذنى فى سيارته إلى المنطقة التعليمية، وقدَّمنى إلى من خيرنى بين مدارس البلد ومدارس الرمل، فاخْترت الرمل دون أن يكون لدى أى أساس للتفضيل، فأعطانى رسالة إلى ناظر مدرسة رياض الإعدادية بباكوس.

وفى المساء انتقلنا إلى شقة مفروشة أوسع فى الإبراهيمية فتوفر لى الاستقلال بحجرة، وانضم إلينا طالبان من حقوق الإسكندرية، وفى الصباح وصلت بترام الرمل إلى المدرسة، وسرعان ماوجدت نفسى أعمل بمهنة التدريس، وأسعى إلى تقديم ما لدى من خلالها. وكنت قد تلقيت تدريبا عمليا عليه خلال السنة الرابعة فى دار العلوم أرضى فيه أدائى الأستاذ زكى المهندس، المشرف عليه، إلى أقصى حد.

مضت أيامى فى الإسكندرية متشابهة. كنت أقوم بالتدريس فترة النهار، ويصبح الوقت كله ملكى بعد ذلك،

فأتناول طعامى فى المطاعم، وأتمتع بالمشى على الكورنيش، وأذهب كثيرا إلى حدائق الشلالات، وأتجول على نحو واسع فى شوارع الرمل. وأقبل الخريف فاشتدت الرياح وعرت الأشجار من أوراقها، فامتلأت الشوارع بالأوراق الجافة المتساقطة، ولم أكن قد رأيت منذ أيام شارع البحر فى أسيوط منظرا مثل هذا، وزاد البحر من إحساسى بالوحشة، ولكن ذلك لم ينقص من متعتى، كما زادت الأمطار الغزيرة-التى هطلت مدة بقائى فى الإسكندرية مرة أو مرتين-من إحساسى بأننى أعيش فى عالم جديد كنت قد قرأت عنه فى الكتب ، وهو عالم أوروبا الغامض المتحرر المتحضر الراقد وراء المدى اللامتناهى للبحر الأبيض المتوسط.

وكان منظر السفن الداخلة إلى الميناء، والمغادرة، يثير فى نفسى مشاعر متباينة. كان خيالى يقظا وحادا إلى أقصى درجة، وكنت – ومازلت – أعوض عن طريق الخيال خبرتى المحدودة بعالم الواقع. وكانت أوروبا قد بدأت تتحدد فى مخيلتى باعتبارها الغاية القصوى لكل طموح، والذروة العليا لكل أمل. إن الكتاب الذين قرأت لهم وأحببتهم يتصلون بأوربا على نحو أو

آخر، والمستقبل المشرق يمر دائما بأوروبا. وقد أتاحت لى الوحدة الكاملة فى الإسكندرية فرصة للتعمق فى هذا النوع من المشاعر، ولكن التعلق بأوروبا بقى ضربا من أحلام اليقظة؛ فقد كان واقعى المادى محدودا جدا.

وبعد حوالى شهر أخبرنى أحمد مختار أن الجامعة وفرت منحتى تفرغ فى الكلية للدراسات العليا. يلتحق الطالب المتفرغ بقسم يختاره، ويواصل دراسته العليا فيه لقاء مكافأة قدرها خمسة عشر جنيها، والشرط أن يكون من المتفوقين، وأن يكون متفرغا. وعلمت من مختار أنه استقال بالفعل من التدريس والتحق بقسم فقه اللغة، وحثنى على الاستقالة السريعة والالتحاق بقسم الأدب. بقيت فى أخذ ورد ليلتين ثم استقلت وتركت الإسكندرية عائدا إلى دار العلوم فى يوم من أيام ديسمبر عام ١٩٥٨. وأذكر أننى حين أخبرت تلاميذى بذلك (وكانوا جميعا فى حوالى الثالثة عشرة) تأثروا بشدة، وبكى بعضهم، فتأثرت بدورى، وكان وداعا مؤلما.

ولم أجد لى فى دار العلوم مهمة محددة فانتظمت فى السنة التمهيدية للماجستير فى قسم الأدب، وعدت إلى السكن مع

أختى، كما عدت إلى الاطلاع المنتظم فى دار الكتب فى المساء، وفى مكتبة دار العلوم فى الصباح. ولم أكن أستريح إلا ليلة الجمعة، فأقضيها فى نادى دار العلوم مع أحمد مختار وفاروق شوشة، الذى كان قد انتقل إلى الإذاعة، وأصبح نجما لامعا.

كنت أحصر قراءتى -إلى ذلك الوقت- فى الأدب الحديث، أتوسع فى الشعر، وأقرأ فى الرواية والقصة القصيرة والمسرحية، ولكن على نحو ضيق. وكان ذهابى للسينما قليلا، وللمسرح أقل، وإن كنت فى فترة متقدمة قد عرفت طريقى إلى دار الأوبرا مع بعض طلاب الأزهر، فشاهدنا بعض المسرحيات التاريخية والاجتماعية مثل «النسر الصغير» و «مسمار جحا» و «العباسة». كنا نتخذ لأنفسنا موقعا فى أعلى المسرح قرب السقف الذهبى، وكان مدخل دار الأوبرا، بتماثيله وإضاءته، ثم المنظر المخملى الأحمر فى الداخل، يبعث فى نفسى أعمق المشاعر وأكثرها غموضا.

وفى تلك الفترة زرت ندوة العقاد، التى كان يعقدها فى بيته صباح كل يوم جمعة بشارع السلطان سليم الأول بروكسى بمصر الجديدة، بصحبة عبد الحى دياب (وكان رحمه الله من

تلاميذه المقربين) وإسماعيل الصيفى، ولم تترك الزيارة فى نفسى أثرا كبيرا، ولم أستسغ المديح المطلق الذى كان يكال له من بعض الحاضرين. لم تكن ندوة وإنما كانت محاضرة تلقى. وقد لاحظت أن ردود العقاد على بعض المتسائلين كانت قاسية. ولم أعد مرة أخرى إلى ندوة العقاد، ولكن من عجائب الصدف أننى أصبحت أسكن بعد عودتى من انجلترا عام ١٩٦٥ فى شارع السلحدار المتقاطع مع شارع السلطان سليم الأول (وقد أصبح يسمى شارع شفيق غربال) على بعد خطوات من منزل العقاد. وأستطيع الآن أن أرى شقة العقاد من شرفة منزلى، وأمر أمام منزله كل يوم، ومرات فى اليوم الواحد، وأتأمل الأيام الماضية، فتغمرنى الذكرى والحنين. وقبل زيارة ندوة العقاد بسنين استمعت إلى طه حسين محاضرا فى قاعة إيوارت التذكارية بالجامعة الأمريكية، وفى نادى الضباط، وفى نادى الخريجين. وكنت أجلس فى محاضراته سعيدا إلى أقصى حد، ومستمتعا برؤية سمته الأنيق، وسماع صوته الرخيم، ولكننى لا أظن أنى أضفت إلى معلوماتى من محاضراته كثيرا إلى القدر الذى حصلته من قراءة كتبه.

وفى تلك الفترة نما لدىَّ إحساس بضآلة القدر الذى قرأته فى كتب التراث العربى. كنت قد قرأت قدرا قليلا من الشعر القديم فى كتب الأزهر، ثم قدرا آخر فى مناهج تاريخ الأدب والنصوص والتاريخ العام فى دار العلوم، ثم قراءات خاصة سريعة فى الأغانى، وصبح الأعشى ويتيمة الدهر، ونهاية الأرب وغيرها من المراجع التى كانت متاحة على أرفف الخزائن المحيطة بقاعة المطالعة فى دار الكتب. والآن جلست لأسأل نفسى : أليس عجيبا أن تكون خبرة شخص مثلى -تعلم فى الأزهر ودار العلوم- بالتراث محدودة إلى هذا الحد؟ وكان السؤال مقلقا لى إلى أبعد حد.

حين جزت امتحان الدراسات التمهيدية للماجستير كنت لا أزال أتقاضى مكافأة التفرغ، وأصبح حتما أن أبحث عن موضوع أسجله للدراسة. وقد اتجهت إلى التراث تحت وهم زائف فى البداية بأن المجال فيه محصور، ثم نمت رغبتى فى المعرفة به بالتدريج. وقد جعلنى هذا الاتجاه أتردد على مكانين لم يكن لى بهما عهد من قبل، الأول قسم المخطوطات بدار الكتب، والثانى معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.

فى معهد المخطوطات تعرفت على رشاد عبد المطلب. وقد استقبلنى استقبالا حسنا، وعرض علىَّ المساعدة، وأبدى معرفة-

أذهلتنى آنذاك – بالمخطوطات: أسمائها وما حقق منها وما لم يحقق، وطبعات الكتب، وأسماء الناشرين.. إلخ، وزاد فدعانى مرة – إلى زيادة بيته فذهبت، مع أحمد مختار، وجلسنا بين الكتب. وكان رشاد عبد المطلب صاحب حديث ساحر، ولم تنقطع علاقتى به على مرور الأيام. وفى حوالى سنة١٩٦٣ زارنى فى لندن، وقضينا يوما ممتعا فى المدينة بعد أن انضم إلينا أحمد مختار قادما من كمبردج، وتذكرنا الأيام الخوالى. وبعد عودتى من البعثة لقيته مرة فى بيت أبو الفضل إبراهيم بمصر الجديدة، وأخرى فى الجامعة الأمريكية، ثم سمعت بعد ذلك خبر وفاته المفاجئة الفاجع !

وفى قسم المخطوطات بدار الكتب تعرفت على فؤاد السيد. كان بشوشا ودودا، على علم بالمخطوطات، وكان السبب فى تعرفى بمحمود شاكر. كنت قد قرأت لمحمود شاكر فى «الرسالة»وأنا فى المرحلة الثانوية فى الأزهر، ولكننى لم أتفاعل كثيرا مع كتاباته، وتابعت بصفة خاصة المعركة التى نشبت بينه وبين سيد قطب ومحمد رجب البيومى حول حديث «لا تسبوا أصحابى».

قال لى فؤاد السيد ذات مساء، وكنت قد شكوت إليه حيرتى فى اختيار موضوع للماجستير : «لماذا لا تذهب للقاء محمود شاكر ؟» وحين أدرك من صمتى صعوبة الأمر علىَّ حمل عنى عبء ترتيب هذا اللقاء.

وفى مساء اليوم التالى قال لى : «محمود شاكر ينتظرك فى التاسعة من صباح الغد بمنزله بمصر الجديدة ٣ش الشيخ حسين المرصفى قرب ميدان سفير». وقد أشاع فى نفسى ذلك شعور الرهبة والخوف والفرح، ولكننى – فى الموعد – كنتُ على بابه.

ضغطت على جرس الباب وانتظرت. وبعد ثوان فُتح الباب وملأ فراغه من عرفت أنه محمود شاكر نفسه. كان شابا «فى حوالى الخمسين !» مليئا بالصحة والحيوية، وفى كامل هيئته، أنيقا إلى أقصى حد، أسمر اللون، وسيما، ذا تقاطيع «صعيدية» لا يخطئها الإنسان. وبدا لى لأول وهلة قريب الشبه لعم من أعمامى فى جهينة. وقد حيانى فى ود، وقادنى مباشرة إلى قلب مكتبته. كانت المرة الأولى التى أرى فيها مكتبة خاصة بهذه الضخامة، وهذا النظام. كانت الكتب ترتفع فى رفوفها حتى السقف، وتمتد

فى الطرقات، وقد كسى معظمها بجلد لامع، ودارت عيناى فيها، وكدت أصاب بالدوار، ولكننى تماسكت. وسألنى عن نفسى وماذا أريد، وتحادثنا فى جو مصر الجديدة الهادئ حتى الظهر. ولما أُذن للصلاة قال لى بود بالغ : أتصلى؟ ولم أكن أصلى بصفة منتظمة ولكننى طلبت أن أتوضأ، وأمَّنى فى الصلاة. وبعد الصلاة طلبت الإذن بالانصراف فاستبقانى بمودة قائلا : «أنت صعيدى، ولدينا اليوم «ويكه» وبعد قليل سيصل أحمد راتب النفاخ، ومازن المبارك، فابق للغداء معنا»، ولم أملك -لفرط خجلى، ووقوعى فى أسر كلماته- سوى الاستجابة. وكان الغداء ممتعا حقا، خاليا من المبالغة والاستعراض، ومرتبا، ونظيفا. وسررت بالتعرف على تلميذى محمود شاكر السوريين، واستمرت معرفتى براتب النفاخ فترة أهدانى فيها نسخة مفيدة من تحقيقه لديوان «عبد الله بن الدمينة».

وبعد الغداء، والشاى، والراحة، قرأ محمود شاكر على تلميذيه -وعلى مسمع منى- قصائد من مخطوطة ديوان جرير. وقد تأثرت أبلغ التأثر بهذا الجو العلمى الخالص، وقوى لدى الإحساس بضآلة معرفتى بالتراث العربى. ولم يتوجه إلىَّ

محمود شاكر طول الجلسة بشيء مما كان يتوجه به إلى تلميذيه، ولا أحرجني بسؤال. وحوالي المغرب تطوع فاتصل تليفونيا بعمر الدسوقي -الذي كان سيشرف على رسالتي في دار العلوم- وسأله إن كنت أستطيع أن أخرج ديوان «القطامي» الذي يقول :

والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

فوافق عمر الدسوقي على ذلك.

وفي المساء غص البيت بالناس، وانتظمت جلسة العلم. كان فيهم ناس معروفون، وناس عاديون، وأقرباء لمحمود شاكر، وطلاب يتابعون دراستهم العليا. ولم تكن الجلسة قد انفضت حين رغبت في الانصراف وسمح لي به، وخرجت أمشي نحو ميدان سفير بعد يوم حافل من أيام حياتي.

كان محمود شاكر يقدم عمله للناس دون مقابل، ويلقى زائريه بود غير مصطنع. وقد ترددت بعد ذلك على بيته، واتصلت أسبابي بأسباب التراث العربي، فقرأت بعض دواوين الشعر القديم قراءة منظمة، واتضحت لي صورة الأدب العربي القديم، وسجلت للماجستير موضوع تحقيق ديوان القطامي، وساعدني

محمود شاكر في الحصول على مخطوطة المانيا، وكانت مخطوطته الثانية بدار الكتب، وعملت بجد شهورا طويلة من عامى ١٩٥٩و ١٩٦٠. وفى شهر إبريل عام ١٩٦٠ عينت معيدا بقسم الأدب، وتقدمت لخطبة زميلتى نبوية الترزى.

أصبح راتبى ثلاثة عشر جنيها، وكان كافيا فلم أطلب مالا من أهلى بعد ذلك قط. وكان –ولا يزال – لى ميراث من الأرض خلَّفه لى أبى، ولكننى لم أفكر فى طلبه، أو طلب ريعه، من أخى الأوسط، الذى بقى فى جهينة، يفتح بيتنا، ويستقبلنا فى زيارتنا النادرة، ويربى أولاده، ويرعى أختا لنا فيه. وقد فعل كل أخوتى الشىء ذاته، وبقيت صلات الود تحكمنا، كما بقيت الثروة التى خلفها لنا أبى كاملة لم تمس، وإن لم تنم كثيرا. والظاهر أننا ضربنا بهذا مثلا غريبا فى القرية التى ما يكاد يتوفى فيها رب الأسرة حتى تنشأ المشاجرات بين ورثته سواء كان ما تركه كثيرا أم قليلا. ولا يزال تعلقى بأخوتى شديدا، وأسعد بأن أقدم لهم أى شىء يسعدهم.

ولاحت فى الأفق الفرصة التى بدت لعينى دائما شيئا أقرب إلى الخيال، وهى فرصة «البعثة» إلى أوروبا، وكانت

البعثات فى ذلك الوقت نادرة جدا، وبعد قليل «انفتحت طاقة القدر»، وأعلنت الدولة عن مجموعة كبيرة من البعثات، وكنت- لفرط رغبتى فى «الابتعاث» إلى أوروبا - أرى ذلك مستحيلا، ولا أريد أن أشقى نفسى بالتعلق به. ولكننى تقدمت بأوراقى لإحداها - وهى بعثة النقد الأدبى الحديث - ونسيت - أو تناسيت ! - الموضوع كله.

وفى الشهور التالية عملت فى ديوان القطامى بجد، وترددت على بيت محمود شاكر، وتعرفت على جملة من المشتغلين بالتراث العربى، ومع منتصف عام ١٩٦٠ كانت قد تحققت لى أشياء كثيرة : كدت أنتهى من العمل فى رسالة الماجستير، وأعلنت «خطوبتى»، وظهرت الترشيحات للبعثات فرشحت احتياطيا فى بعثة النقد الأدبى الحديث إلى انجلترا. كانت هذه الأشياء أكبر مما قدرت، فاعتقدت أن الحظ يخدمنى، وبدأت حياتى تأخذ شكلا وقيمة.

لم أفهم لأول وهلة معنى أن أكون مرشحا «احتياطيا»، وحين شرح لى ذلك اعتبرت أن فرصتى فى السفر ضعيفة، وكان علىَّ-على كل حال-أن أؤدى اختبارا شخصيا فذهبت إليه متباطئا.

امتلأت ردهات وزارة التربية والتعليم فى حى الدواوين بمرشحى البعثات، أصليين واحتياطيين، كما امتلأت بالهمسات الغامضة عن شخصيات الممتحنين ونوع الأسئلة، وكثر كذلك «القيل والقال». ونشط مدير البعثات داخلا إلى الحجرات التى ستعقد فيها المقابلات وخارجا منها. ودخل الممتحنون فرادى وجماعات، ولم يكن لى عهد بوجه واحد من وجوههم، ثم نودى على الطلاب أربعة أربعة، وانتشر المرشحون فوق الدرجات الرخامية الواسعة، وامتدت مجموعاتهم حتى الساحة الخارجية الخضراء، أما أنا فقد انتحيت مكانا قصيا فى حجرة جانبية صغيرة ملحقة بإحدى حجرات الاختبار، وانتظرت فى صمت. ونادى المنادى على الأسماء. وكان اسمى، بحسب الترتيب الأبجدى، يأتى متأخرا، فطال انتظارى حتى تأخر المساء، ولم يبق من المنتظرين سوى آحاد متناثرين فى الردهات. وكان لدى هذا المنادى جهاز «ترانزستور» صغير-وهو أعجوبة الخمسنيات-ينبعث منه صوت أم كلثوم تشدو بأغنية جديدة هى أغنية«أروح لمين !» وحين سبحت عميقا مع النغم الجميل نوديت للقاء اللجنة.

جلس ثلاثة ممتحنين فى المواجهة يقابلهم أربعة مرشحين، ودارت الأسئلة حرة ومتنوعة، وتناوب الممتحنون الأسئلة وطلبوا إلى المرشحين أن يتناوبوا الإجابة. كان بعض الأسئلة قريبا من اهتماماتى وبعضها بعيدا عنها. وقد تحاورت مع المتحاورين، ونشطت مخيلتى. وكان من عاداتى -ولا يزال- أن الذى لا أعرفه لا أتحدث عنه، فضلا عن أن أغامر بتقديم معلومات ظنية فيه. وقد لاحظ من يتوسط الممتحنين (وعرفت فيما بعد أنه وكيل وزارة التعليم العالى) صمتى المتكرر، فكان يوقف النقاش الدائر ويسألنى : وأنت ما رأيك ؟ فكنت أجيب بما أعرف إذا كان السؤال يتطلب معلومات أعرفها، وكنت أدلى بوجهة نظرى إذا كان السؤال يتطلب وجهة نظر إذا كانت وجهة نظرى واضحة لى وأستطيع التعبير عنها، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك كنت أقول «لا أدرى». وقد لاحظت أن بعض المرشحين حريص على تقديم إجابة على كل سؤال يسأل، وكأن المهم لديه ألا يبدو أمام الممتحنين غير عارف، وأظن أن هذه عادة من بقايا عادات الطلاب فى الأزهر؛ إذ كانوا يموهون على الممتحنين فى الامتحانات الشفوية، فينتقلون من موضع إلى موضع حتى حين يسألون فى «تسميع» آيات أو سور متتابعة من القرآن، وذلك على

افتراض أن ذهن الممتحن ليس حاضرا دائما، وأنه على فرض حضوره لا يحفظ القرآن دائما. وقد لاحظت -مسرورا- أن هؤلاء الممتحنين الجدد يزورون عن مثل هذا السلوك فيقولون : لا تقاطع زميلك يافلان، ولا تخرج عن الموضوع يافلان . . إلخ

وجاءت اللحظة الحرجة فى اختيار المعرفة باللغة الإنجليزية. نطق الممتحن ببعض العبارات اليسيرة، وطلب ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية. وتكلم الزملاء، فخَبّوا ووضعوا، ولم أدر -فى الحقيقة- ما قالوا، ولا أدرى الآن -وقد أصبحت على معرفة بهذه اللغة- ما إذا كان ما قالوه صحيحا أو خطأ، ولكننى لاحظت أن الممتحن زجر أحدهم، وطلب إليه أن يترجم إلى الإنجليزية ماطلب إليه أو فليصمت، ويبدو أنه كان- مرة أخرى -على طريقة الطلبة فى الامتحانات الشفوية فى الأزهر- يتنقل- مخادعا- من واد إلى واد ! وحين جاء دورى اعتذرت عن عدم الإجابة لأن معرفتى بالإنجليزية لا يعول عليها على الإطلاق. وقد سألنى الممتحن متعجبا : ألم تدرس من الإنجليزية فى دار العلوم ما درسه زملاؤك ؟ فأجبت بالإيجاب، ولكننى بقيت عند موقفى من عدم الإجابة. وقال الممتحن إنه كان يود لو حاولت كما حاول زملائى، ثم أعلن نهاية المقابلة.

غلب علىٍ ظنى فى الفترة التى انقضت بين المقابلة وإعلان النتيجة أنه لن يكون لى نصيب فى البعثة، وكان يرجع ذلك عندى أننى مرشح احتياطى، وأننى سجلت على نفسى بصمتى فى موضوع اللغة الإنجليزية نقطة تضعف من موقف هو ضعيف بالفعل. ومن الغريب أن هذا الإحساس أعطانى نوعا من الراحة فلم أنتظر النتيجة بأى قدر من القلق. كانت البعثة فى خيالى أكبر وأبعد من أن تتحقق، وكان القلق على النتيجة–لذلك–إسرافا فى الأمل لا يجدر بى. لذا فإنه كان مذهلا ومفاجئا لى إلى أقصى حد أن أعلم–حين أعلنت النتيجة–أننى أصبحت مرشحا بصفة أصلية للبعثة فى انجلترا. ولا أجد الآن سوى كلمتى «مذهل» و «مفاجئ» لأصف بهما شعورى، ولكننى على يقين من أن شعورى آنذاك تجاوز الإحساس بالذهول والمفاجأة إلى مناطق أخرى يصعب علىَّ الآن اقتناصها فى كلمات. كنت سعيدا، ومندهشا، وبين مصدق ومكذِّب، وحائرا، ومضطربا، وأشياء أخرى كثيرة !

وتزاحمت الأحداث وتلاحقت. نحيت فكرة الحصول على الماجستير من دار العلوم جانبا (وبقى عندى ديوان القطامى

محققا ومدروسا حتى هذه اللحظة)، وأسرعت بالزواج فى ٢٨يوليو١٩٦٠، وانغمرت فى الإعداد للسفر، فحدد لى بالباخرة من بورسعيد فى١٧سبتمبر.

تجمع أهلى وأهل زوجتى، وقليل من زملائى على رصيف المحطة فى الصباح الباكر. وكنت قد زرت بورسعيد مرة واحدة فى العام السابق فلم يكن لى بها معرفة حقيقية. وقد نزلناها حوالى الظهر، واخترنا فندقا نظيفا فى وسط المدينة لنقضى فيه ليلتنا. وفى الليل خرجنا إلى الحى الإفرنجى نتفرج على المدينة ونتعرف على الميناء. وقد نفذت إلى أنفى رائحة البحر مرة أخرى. أما صباح السفر فكان جميلا، وقد اختلط فيه دفء مشاعرى نحو زوجتى بمشاعر الخوف والقلق والسرور والآمال الغامضة، فقضيت فترة سعيدة ومحزنة! وكان قلقى يتركز بصفة خاصة حول جهلى الكامل باللغة الإنجليزية، ولكن زوجتى–وقد عملت بالمدرسة الإنجليزية عامين كاملين – طمأنتنى إلى أنها ستدبر الضرورى من الأحوال.

وفى المساء دلفنا من القارب البخارى الصغير الذى أقلنا إلى الباخرة «كانتون» التابعة لشركة P. & O. كان كل شىء فيها نظيفا ومضيئا، وحين قادنا مرشدنا إلى حجرتنا فيها عبر

الطوابق والطرقات أدركت أننا دلفنا إلى مدينة كاملة، وأنها «الجنة» تعوم على الماء. كانت الباخرة تشبه-حين أتذكر الآن- فنادق الدرجة الأولى : هيلتون وشيراتون وسميراميس، ولكن لم يكن لى عهد بهذه الفنادق. بدت هذه المدينة العائمة شيئا جديدا ساحرا. وقد تشربت كل شيء فيها بشعور من «الجدة» المطلقة، فلم يكن فى تجاربى ما ينتمى إلى هذا العالم على الإطلاق. سبعة أيام فى البحر لم نر اليابسة قط، ولا توقفت الباخرة قط. سبعة أيام من السعادة العاطفية، والراحة، والتوقعات المثيرة. كنا نرتاد قاعة الطعام الفخمة ثلاث مرات فى اليوم، ونتناول «غرائب» الأطعمة بغرائب الطرق. وكنت أتذكر القصص التى قرأتها عن المبعوثين الرواد إلى أوروبا، وما حدث لهم من مفارقات، وبخاصة فى طريقة تناول الطعام، فآخذ حذرى إلى أقصى حد. وفى ٢٤ سبتمبر ١٩٦٠ كنا نقترب من الشاطئ الجنوبى لانجلترا، وبعد ساعات بالقطار وسط الخضرة الغامرة الداكنة، والطبيعية التنوعة الساحرة، كنا فى قلب لندن.

★ ★ ★

لندن : التحول الكبير فى حياتى

كان السعيد بدوى على رصيف محطة القطار فى انتظارنا. وهو صديق قديم لإبراهيم الترزى شقيق زوجتى، وكنت قد رأيته من قبل مرة واحدة. كان قد تخرج فى دار العلوم سنة ١٩٥٤، وسافر إلى انجلترا بعد ذلك بفترة ليدرس «علم اللغة» على حسابه الخاص. وسيكون له أثر كبير– منذئذ–فى حياتى.

كان يحمل فى يده حقيبة ورقية صغيرة اتضح لى فيما بعد أن بها بعض «المواد التموينية»، وقد رأيت فى هذه الهدية– على بساطتها–شيئا طريفا، ورمزا عمليا دهشت له.

لم يكن فى بناء محطة السكة الحديدية ما يلفت النظر. كانت شديدة الشبه فى معمارها ونظامها بمحطة القاهرة، إلا أنها كانت تميل إلى السواد، لكثرة ما غطاها من الدخان، وكانت نظيفة جدا. وحين تركنا رصيف القطار إلى موقف التاكسى فى

فناء المحطة كانت شمس الأصيل مشرقة، وكانت الريح باردة جداً. ولفت نظرى ذلك الطراز الغريب الأسود الثقيل الموحد لسيارات التاكسى. وإذ ترك بنا التاكسى فناء المحطة إلى الطريق العام اختلت قواعد المقارنة فى ذهنى. كنت قد ظننت – محقا – أن لندن أعظم من القاهرة، ولكننى – غير محق – ظننت أنها لابد أن تكون لذلك أكبر بنيانا، وأشد ازدحاما وصخبا. وأنا الآن– على عكس كل ما توقعت – أواجه جوا أقرب ما يكون – فى صفائه وسكونه وتراوح بناياته بين الطابق والطابقين وخلوه النسبى من المارة – إلى جو جهينة، أو جو شارع البحر فى أمسيات أسيوط فى الأربعينيات. على أن الخضرة هنا كانت بارزة للعيان على نحو غطى حتى على حقول جهينة وحدائق الفيلات الخاصة لأثرياء أسيوط. وقلت لنفسى–وقد انفصلت شعوريا عن الركب– أين الملايين الثمانية الذين قيل لى إنهم يسكنون لندن ؟

كان ترحيب السعيد بنا دافئا، ولكن لا مبالغة فيه، واستغرقت رحلة التاكسى من المحطة حتى المنزل الذى كان قد اختاره لنا فى شمال لندن حوالى عشرين دقيقة، جرى فيها التاكسى فى شوارع واسعة مستوية معظم الوقت، وارتفع بنا

وانخفض مرات قليلة. وعلى الرغم من أن الشمس كانت ترسل أشعتها بدا أن المدينة « رمادية» بمعنى الكلمة. ولم أستوعب من ملامح المدينة فى هذه الرحلة كثيرا، فقد كنت-ومازلت-أميل إلى أن يستغرقنى «التفكير» من أن تشدنى «الملاحظة». وفجأة توقف التاكسى أمام المنزل «٣٨ - مرتفع بورتلاند - شمال لندن ٤».

كان السعيد طوال الرحلة يوجه السائق من فتحة فى حاجز زجاجى يفصلنا عنه، وحين توقف أعطاه أجره، وصعدنا فى «سلاملك» حوالى عشر درجات-وكان متاعنا حقيبتين أو ثلاثا - ولاحظت أن ثمة زجاجتى لبن فارغتين أمام باب البيت المغلق فقدرت لأول وهلة أنهما لطعام القطط !. ضغط السعيد على جرس الباب ففتحته شابة طويلة القامة، رومانية الملامح، ترتدى ملابس بسيطة، وقد حدثها السعيد حديثا قصيرا، فقادتنا إلى ردهة هادئة نظيفة، ومنها إلى درج خشبى مكسو بقماش صوفى يشبه السجاد، فلم يسمع لصعودنا على الدرج الخشبى صوت. أما الحكمة«الجمالية» من وضع هذا الكساء على الدرج فقد كانت أوضح من أن تشرح، كان المنظر فاخرا وجميلا جدا.

صعدنا حوالى عشر درجات فواجهنا الحمام، ووقع على يسارنا مطبخ صغير خاص بنا، أماً الحمام فكان مشتركا بيننا وبين غيرنا من السكان. وصعدنا حوالى سبع درجات أخرى أفضت بنا إلى ردهة تتوسط ثلاث حجرات، كانت حجرتنا من بينها هى الأولى على يسار الصاعد.

وقفنا أربعتنا فى وسط الحجرة، وأخذت الشابة الجميلة– ربة البيت – تشرح للسعيد ما لنا وما علينا، وكيف نستخدم المرافق. ولم أفهم بالطبع مما قالته هى شيئا وإن كان السعيد– بدوره – يشرح لنا. كانت الحجرة تحتوى على سرير كبير وثير، وعلى مقعدين وثيرين متقابلين فى جانبى المدفأة، ومائدة طعام بيضاوية الشكل تحيط بها مجموعة من المقاعد، وصوان للملابس، وكانت تشرف بنافذة زجاجية هائلة على الحديقة الخلفية للمنزل. كان الهدوء الشامل يلف المكان، وفروع الأشجار تكاد تقتحم النافذة، وقد شاع فى الجو عبير منعش. وكانت الريح باردة، والشمس تكاد تتوارى.

كان فى البيت نظام مياه ساخنة جارية تعمل بالعداد، ولم أستسغ أبدا فكرة الاشتراك فى الحمام. وقد بقى السعيد معنا

فترة قصيرة وتركنا ليلحق بمترو الأنفاق، وكان يسكن جنوب لندن، وتواعدنا فى الصباح على أن نلتقى على رصيف محطة فى باطن الأرض قريبة من مكتب البعثات ليأخذنا إلى هناك.

كانت ليلتنا الأولى فى لندن غارقة فى الهدوء، وقد تسمعنا الصمت الذى كان يلف العالم الخارجى، ولم يكن لدينا ما يصلنا بهذا العالم. كان ثمة جهاز تليفون فى الردهة السفلية، رأيناه، ولكننا لم ندر أنه لاستخدام كل السكان. لقد تركنا السعيد مبكرا، ولكننا لم نبرح غرفتنا، ولم نستخدم الحمام أو المطبخ، ولا عادت لنا ربه البيت. وكان علينا أن ننهض فى الصباح مبكرين.

اتخذنا طريقنا إلى المدينة -حسبما وصف السعيد- بمترو الأنفاق، من أقرب محطة إلى بيتنا هى محطة «مانور هاوس» على خط البيكاديللى، وكانت تجربة الهبوط والصعود والحصول على التذاكر، ورؤية عالم ما تحت الأرض المضئ الملئ بالحركة، مثيرة لنا جدا؛ ذكرتنى بيوم العيد فى جهينة، وأشاعت فىَّ البهجة والدهشة والخوف من الضياع. كانت سرعة المترو هائلة، ومحطاته متوالية، وكان يجرى على خط واحد

دون تغيير. وبعد حوالى عشرين دقيقة هبطنا لنجد السعيد جالسا على أريكة خشبية، واضعا نظارة القراءة، يقرأ فى صحيفته الصباحية المفضلة.

بدا لى فى البداية «نصف منطلق» معى «ونصف متحفظ»، ولعله فى ذلك كان يجارى طبيعتى ذاتها، وقد أدركت فى الحال حيويته المفرطة، كما أدركت طبيعته الودودة، وروحه الساخرة. ذهبنا مشيا على الأقدام إلى مكتب البعثات، وكان السعيد يقدم لنا المعلومات فى تواضع جم عن أسماء الشوارع والمعالم. وفى مكتب البعثات رحب بنا القائمون عليه ترحيبا آليا، ولكنه جديد علينا إذا قيس بالحال الذى تركناه وراءنا فى إدارة البعثات، أو إدارة الجوازات، أو حتى شركة مصر للسياحة ! وأعد لنا المسؤول المالى شيكا بمبلغ أربعة وأربعين جنيها لنفتح به حسابا فى البنك، وكان هذا مبلغا عظيما فى حياتنا.

تجولنا بعد ذلك على الأقدام فى المدينة، وبلغنا ميدان بيكاديللى الشهير، واستخدمنا المترو لمسافة قصيرة مرة أو مرتين، ودخلنا بعض الدكاكين لشراء لوازمنا السريعة، ومنها ذلك المبنى الهائل المعروف فى شارع اكسفورد، مبنى «سلفر

يـجـيـز». وهـالـنـى تـعدد الـجنسيـات، وبـخـاصـة كـثرة الأفـارقـة والأسيويين، وتناولنا طعام الغداء بدعوة من السعيد فى مطعم يـونـانـى، ومررنـا علـى «مدرسـة الدراسـات الشرقية والأفريقية» وهى الكلية التى كان مكتب البعثات قد ألحقنى بها فى جامعة لـندن، فشربنـا الشـاى فـى حـجرة الطلاب، وتـحدثـنـا إلـى بـعض مـعـارف السعيد، وكـانت الـحـجرة غـاصـة بـالـهـنـود والأفـريقيين والعرب. ومع العصر ودعنا السعيد إلى محطة «راسل سكوير» بـالقرب من الكلية، وهى المحطة التى كنت سآخذها إلى «مـانور هـاوس» أو غـيـرهـا مـن مـحـطـات الشـمـال ذهـابـا وإيـابـا طيـلـة السنوات الخمس القادمة.

تقع محطة «مـانور هـاوس» على الضلع الأيمن لمثلث رأسه أمام منزلنا بالضبط، وعبر الطريق من الضلع الأيسر لهذا المثلث تمتد حديقة «فنسبرى»، ويقطع هذا المثلث من بيتنا إلى المحطة، أو إلـى الـحـديقـة، فـى حـوالـى خمس دقـائق مشيـا علـى الأقدام. وهذان أول معلَمين من معالم لندن تحسسنا إليهما الطريق إلى البيت، وكـانت زوجتى- لحسها الجغرافى الواضح، ولسبقها لى فـى المعرفـة بـالإنـجليـزيـة - هـى «مرشدتـنـا» خلال «طلعـاتـنـا» الأولى هذه فى لندن إلى المحطة والحديقة.

كنا نتمشى إلى «مانور هاوس»، ونتسلى فى ساعات الذروة-برؤية الأفواج البشرية الصاعدة من جوف الأرض والهابطة إليه. وكانت السرعة الهائلة لإيقاع الحياة هى التى تبهرنى. الناس يمرقون لا يلوون على شئ، والنساء فى ذلك- وفى كل شىء-كالرجال. وعادت إلى ذهنى صورة المرأة الأوروبية العاملة كما صورها سلامة موسى فى كتاباته، وقارنت بين عالمهم فى هذه الناحية وبين عالمنا الذى كان ولا يزال-ورغم كل ما يقال-عالم الرجال! وقد اشترينا-فى الأيام الأولى-صحفا لم نقرأها قط، واشترينا تذاكر سفر لم نستخدمها قط! كنا نريد فحسب أن نتعود على الحياة الجديدة باختبار حركتها ليس غير.

وفى حديقة «فنسبرى» دلفنا إلى المسطحات الخضراء المترامية، وتوغلنا حتى فقدنا كل إحساس بالمدينة، وتأملنا أحواض الزهور، ومربعات الحشائش، والأشجار المختلفة الأشكال والأحجام، والبحيرات الصناعية الواسعة التى تسبح فيها أنواع الطيور وتحوم عليها. وأعاد ذلك إلى ذهنى أحاسيس الحقول فى الطفولة، وكنت قد افتقدت ذلك فى كثافة مبانى

الأحياء الشعبية فى القاهرة. وكانت القاهرة -لذلك العهد- قد بدأت بالفعل تفقد لونها الأخضر : دمرت حديقة الأزبكية بوحشية، وذبحت الأشجار فى أماكن أخرى كثيرة، وامتد هذا الذبح إلى أماكن كانت تعتبر عذراء فى الجزيرة. كنت -فى «فنسبرى» أعيش -بالخيال- فى جهينة، بين تمويجات المياه والخضرة، ولعب الريح برءوس الشجر. ما أشبه جو «فنسبرى» بجو رحلتى فى الصباح الباكر من القرية إلى الحقل. تلك هى الطبيعة الشابة السخية، الروائح ذاتها، وفرحة الفؤاد البرئ ذاتها. هل أقول إننى بذهابى إلى لندن عدت إلى جهينة، وإن فصل القاهرة هو فصل الزيف، والصنعة، والغربة، والألم فى حياتى؟

وصلنا لندن قبيل افتتاح العام الدراسى، ولم يكن لدينا سوى أيام قليلة نمارس فيها حريتنا بالتعرف على البيئة الصغيرة المحيطة بمنزلنا، وقد زارنا زملاء البعثة ممن سبقونا بأيام إلى لندن، ونشطت زوجتى فى ترتيب بيتنا الصغير، صاعدة هابطة بين الغرفة والمطبخ، فجعلت منها فى وقت قصير مكانا لا نريد أكثر منه، وكانت تميل هى إلى الخروج للتعرف على الحى، فى حين أميل أنا إلى المقام. وكنت أقدر فى نفسى

أننى قد أتعرض لموقف لا أرضاه فى السوق أو خلال الصعود أو الهبوط إلى الشارع، فقد يلقانى أحد فيحادثنى بالإنجليزية فلا أفهم ولا أستطيع الإجابة! لم تكن منطقتنا التى نسكن فيها -على شعبيتها - بيوتا بارزة للعيان، وإنما كانت أقرب إلى الخضرة المتصلة التى تطل من كل مكان، ومن كل شىء، فحيثما نظرت فثمة الباحة الخضراء الأمامية للبيوت أو الحدائق الخلفية لها، وخلال كل ذلك وفوقه تمتد فروع الشجر. أما «الأفارين» فعريضة ومصمتة ومغسولة دائما بماء المطر، وتكاد تخلو من المارة، وهذا كله شىء مفقود- ويا للألم-فى عاصمة بلدى!

كان علىَّ أن أقابل الأستاذ «روبرت سارجنت» المشرف على رسالتى فى يوم افتتاح الدراسة، وعلمت أنه لا يتحدث العربية مع تلاميذه قط، فسعيت إلى أن يصحبنى فى مقابلته عبد الحكيم حسان، وكان قد التحق بالمعهد ذاته قبلى بسنتين. وأتذكر الآن النظرة المشفقة التى ارتسمت على وجه السعيد بدوى حين أخبرته بذلك، كما أتذكر مناقشاتى معه حول المصاعب التى أتوقعها نتيجة ضعفى فى اللغة الإنجليزية.

بدأت الدراسة صبيحة الإثنين الأول من شهر أكتوبر سنة ١٩٦٠. مر الطلبة الجدد على سكرتيرة قسم دراسات الشرق

الأوسط بمدرسة اللغات الشرقية والأفريقية فتسلموا مظروفا متخما بالأوراق، وحملت مظروفى الذى أجهل ما فيه لعرضه على الزملاء. وقد فهمت أن فيه إرشادات خاصة بإتمام التسجيل، وأن فيه بطاقة تحتاج إلى توقيع الأستاذ سارجنت، ووجدت طلبة الكلية الجدد يقفون صفا أمام باب حجرة الأستاذ، ولم آخذ مكانى فى الصف انتظارا لمجئ عبد الحكيم حسان، ولزملائى الذين أعرفهم من الطلبة الجدد. وبعد قليل اكتمل العقد فدخلنا وكنا ثلاثة، ثم تبعنا عبد الحكيم حسان. كان الأستاذ يجلس إلى مكتبه على يسار الداخل، وحين رآنا هب واقفا ودعانا-بإشارة من يده- إلى الجلوس. ثم بدأ يتحدث بسرعة بدت لى أكبر من السرعة التى يتحدث بها أى شخص سمعته يتحدث الإنجليزية من قبل. كان بدينا، ذا شعر رمادى، دقيق الملامح، وسيما إلى أقصى حد، ممتلئا بالصحة، وقد قدرت أنه فى حوالى الخمسين من العمر. كان يوجه أسئلته إلينا واحدا واحدا، ويعول على الاستماع إلى الإجابة من الشخص ذاته، ويعطى كل اهتمامه لمحدثه. ومع أنه كان يضع أمامه مجموعة الأوراق الخاصة بكل منا-والتى كنا جهزناها فى القاهرة وأرسلت إليه عن طريق

إدارة البعثات–فقد كان ينحيها جانبا، ويميل إلى الاستماع إلى كل منا من فمه. وحين أتى دورى حاولت– عبثا– أن أقول له إن كل شيئ موجود فى أوراقى، واستنجدت بالنظر إلى عبد الحكيم حسان، ولكن الأستاذ استمر فى توجيه الأسئلة إلى ومحاورتى. وأخيرا وقَّع لنا البطاقات التى كان علينا أن نحملها إلى «مس ودنج» مسجلة المدرسة، وعصبها الرئيسى.

عدت إلى البيت حوالى الظهر، حزينا، مرهقا، وقلبى فياض بالقلق، وقدرت فى نفسى أنه إذا كان مجرد لقاء الأستاذ يتطلب كل هذه المشقة، فما الذى يتطلبه الحصول على الدكتوراه؟ وبقيت أياما، ثم وصلنى على عنوان منزلى مظروف ضخم يحتوى على وضعى الدراسى وخلاصته كالتالى :

- أننى سجلت–مؤقتا–لدرجة الماجستير.
- أن علىَّ قبل أن أمضى فى بحثى للماجستير :

(أ) اجتياز امتحان كتابى فى أربعة موضوعات يحددها القسم (وسيلة الإجابة هى الإنجليزية بالطبع).

(ب) اجتياز الامتحان العام الذى يعقد فى اللغة الإنجليزية لكل الطلبة الجدد.

كانت صدمتى كاملة، وضاعف منها أن موعد امتحان اللغة الإنجليزية تحدد بعد أسبوع واحد، حوالى منتصف أكتوبر ١٩٦٠. أما حين قرأ علىَّ السعيد بدوى «مواصفات» هذا الامتحان فقد غصت فى يأس كامل : كان يتألف من جزءين يحضر فى الجزء الأول من يقرأ على الطلاب من كتاب لمدة عشر دقائق بسرعة المحاضرة، ثم يطلب منهم إعطاء صورة ماسمعوا، وذلك فى نصف ساعة، ويعطى الطلاب –للجزء الثانى– نصا فى حوالى خمس صفحات من القطع الكبير، يطلب إليهم ضغطه إلى الثلث، مستخدمين ألفاظهم الخاصة وذلك فى نصف الساعة كذلك.

كان واضحا أن الهدف من هذا الامتحان التأكد من أن الطلاب قادرون على متابعة المحاضرات بالإنجليزية، وتدوين ملاحظاتهم عنها، وكتابة أبحاثهم بها. وصح عندى أن مثل هذا المستوى عزيز المنال – فى المستقبل المرئى– لطالب مثلى. ونسيت فى غمرة الدهشة واليأس– كل شىء عن الامتحان الآخر– امتحان المعادلة وبدأت – منذئذ – ما أحب أن أسميه «دراما» حياتى فى لندن.

لم أدر- فى البداية - كيف أبدأ، ولا من أين، كنت فى حاجة إلى كل جهد، وكل عون. وأخبرت أن الطلبة المصريين يتعاملون منذ وقت طويل مع مدرسة لغة إنجليزية بولندية، تأتى إلى المنازل، ويتحمل مكتب البعثات أجر الدروس فى حدود المعقول، وقد اتصلت بها عن طريق زميل لى، وجاءت. دخلت صاخبة، ولم يمكنِّى بالنظر إليها تحديد عمرها، وقد تفاهمت مع زوجتى على أن تحضر إلينا ثلاث مرات فى الأسبوع، وتمكث فى كل مرة ساعتين. كذلك علمت أن الزملاء يذهبون إلى «المجلس البريطانى» لتلقى دروس فى اللغة الإنجليزية فذهبت وسجلت مع زوجتى، وكان علينا أن نذهب أمسيتين فى الأسبوع.

ويوم امتحان اللغة الإنجليزية ذهبت دون أمل على الإطلاق : دخل أستاذ طويل عريض جهم الملامح، وقرأ من كتاب معه، وانصرف. ولم أفهم مما قاله-بطبيعة الحال-شيئا على الإطلاق، وبقيت ورقة الإجابة أمامى بيضاء إلا من اسمى (كنت قد تلقيت فى دار العلوم بالطبع دروسا فى الإنجليزية لمدة أربع سنوات، وكنت أحقق فى الامتحانات تقديرا عظيما !، ولكننى أدركت بمواجهتى الموقف الجديد أن كل ذلك كان هزلا لا

تعليما). وبعد مضى الوقت المحدد وزعت علينا الأوراق الأخرى، ولم يكن حظى هذه المرة أحسن منه فى المرة السابقة، فسلمت أوراقى بيضاء تماما!

عدت إلى البيت مهزوما، مع أننى لم أقدر قط أننى سأفعل غير ما فعلت. وأعلنت النتيجة بعد ذلك فكان علىَّ أن أنتظم فى دروس تنظمها الكلية مرتين فى الأسبوع، على أن أدخل الامتحان مرة أخرى بعد ستة أشهر. وقد وجدت أن الوقت الآن أصبح مزدحما، ونظمته - بصعوبة - على النحو التالى: أستقبل مدرستى المنزلية ثلاث مرات صباحية (كان اسمها د. فولك، وثمة أقوال متضاربة فى صحة حصولها على الدكتوراه ونوع شهادتها !) وأذهب مرتين مسائيتين إلى المجلس البريطانى، ومرتين، إلى الكلية. ولما لم يبق لى من أمسيات الأسبوع سوى أمسية واحدة (إذ أسبوع العمل خمسة أيام) فقد شغلتها بالتسجيل لتعلم الإنجليزية فى «مدرسة الحى». كنت أمر بحالة أشبه «بالحمى» فى الإقبال على تعلم الإنجليزية، وانتظمت أيامى.

أصحو صباح الإثنين (أول أيام الأسبوع) فأراجع واجب مدرستى المنزلية بعد تناول الإفطار الخفيف، وتأتى هى حوالى

العاشرة فتستمر معى فى صراع حتى الظهر، وتتركنى مجهدا، فأنتظر طعام الغداء، وأستريح قليلا، ثم أنزل إلى «المجلس البريطانى» فى قلب المدينة، قريبا من شارع اكسفورد التجارى، أو إلى الكلية فى «راسل سكوير»، وأعود بواجبات منزلية أعمل فيها إلى قرب منتصف الليل. فإذا كان صباح لا تحضر إلىَّ فيه مدرستى المنزلية أو كان صباح السبت أو الأحد، اشتريت صحيفة صباحية-كثيرا ما تكون «الجارديان» أو «الديلى إكسبريس» وقليلا ما تكون «الديلى ميرور» أو «الديلى تلجراف»- وجاهدتها-بمساعدة زوجتى والقاموس-وقتا طويلا حافلا بالمشقة، والمتعة.

بقى لى وقت فراغ قليل جدا، كنت أقضيه فى المشى واستطلاع معالم الحى. وكان ذلك ممتعا؛ النظافة، والهدوء، والخضرة الغامرة. كنت أرى، وأتأمل، وأتخيل، وأتحدث إلى زوجتى حين تكون معى، وإلى نفسى حين أكون وحدى، وفى ليلة الأحد كنا نذهب دائما إلى السينما. وكنا نذهب إلى سينما بعينها-لم نغيرها طيلة سنتين-فى محطة «فنسبرى» على بعد كيلومترين من منزلنا.

مضى أسبوع، وأسبوعان، وشهر، وشهران، وثلاثة أشهر، وأنا ماض فى العمل. كنت أعمل حوالى ست عشرة ساعة يوميا. ودخل حياتنا فى تلك الفترة جهاز راديو قديم، كنت أجلس إليه فى المساء المتأخر، وقبل النوم، وأستمع دون استيعاب اللهم إلا كلمات تمرق هنا وهناك، حتى ساعات الصباح الاولى.

كنت شبه معزول فى شمال لندن لا أكاد أرى مصريا، وكان السعيد يزورنا، ويأخذنا أحيانا لنتعشى فى بيته فى «ومبلدون»، ولكنه سرعان ما سافر إلى السعودية لجمع مادة رسالته للدكتوراه. وفيما عدا ذلك زارنا عبد الحكيم حسان وزرناه، وذهبنا إلى مكتب البعثات مرة أو مرتين ثم انقطعنا عنه، وزارنا فوزى العنتيل، وكان قادما من «دبلن» حيث يقيم.

فى بداية عهدى بلندن سمعت معلومات، أراها الآن مضللة، وهى أنه بوسع الإنسان أن يحصِّل ما يشاء من أمور اللغة الإنجليزية فى مدة لا تتجاوز شهورا. ولما مرقت منى الشهور دون أن أحس بتحقيق تقدم ملحوظ اتهمت نفسى وزادت أحزانى. إننى بعد الشهور التى قضيتها متفرغا للعمل، وباذلا أقصى الطاقة، لا أستطيع أن أتقدم فى قراءة صحيفة أو كتاب، ولا أن

أعقد محادثة سهلة مع ربة البيت، فكيف ومتى أستطيع عقد محادثة فكرية مع الأستاذ؟ وكيف ومتى أستطيع التعرف على ما فى الكتب ؟ وإذن فأى بئر عميقة وجدت نفسى فيها؟ وكيف الخلاص؟

وحل عيد الميلاد، فلبست له لندن أزهى ثيابها، واشتعل شارع أكسفورد بالأضواء فاستحال إلى نهار، وبدأ الناس يتحدثون عن العطلات والاحتفالات، ولكننى كنت من همومى فى واد آخر. على أن هذه المناسبة أتاحت لنا-بالرغم منا-فرصة نادرة : كنت أهبط الدرج فى «المجلس البريطانى» على عجل ذات مساء، لأننى تركت زوجتى متعبة فى الدار، فلمحت تجمعا عظيما فى قاعة من القاعات، وملت برأسى - لأتطلع وأمضى - فقالت لى فتاة من موظفى المجلس كانت تقف على باب القاعة : لماذا لاتتفضل بالدخول وتشارك فى مقابلة «العائلات الإنجليزية»؟ ودخلت مقدرا أننى سأتناول مشروبا وانصرف. كان المكان غاصا بالناس فأخذت مشروبا وانتحيت جانبا، أحتسيه وأتفرج! وفجأة تقدمت منى سيدة فى منتصف العمر، تميل إلى البدانة وتعقص شعرها إلى الخلف، وفى وجهها ود وحنان بالغان، وقدمت لى نفسها، ونادت فتقدم زوجها، وسألتنى عن نفسى

فاستجمعت كل شجاعتى وذكرت لها شيئا عن بلدى ودراستنى، وحالتى الاجتماعية، وطلبت منى عنوان منزلى فأعطيته دون تردد. وحين عدت قصصت على زوجتى القصة ثم كدنا ننساها.

وبعد يومين أو ثلاث جاءتنا دعوة من هذين الزوجين «السيد والسيدة إيك» لنزورهم فى عيد الميلاد، لتناول الغداء، وذلك فى منزلهما فى مقاطعة «كنت». كانت الرسالة مفاجأة كاملة لنا، كسرت جمود حياتنا الذى طال، وأشاعت الفرحة فى قلبينا، كما أشاعت بعض الخوف فى قلبى. وكانت الرسالة مشتملة على وصف تفصيلى للمكان، وكيفية الوصول، والعودة، والوقت الذى سنقضيه فى ضيافتهم، وتفصيلات أخرى. وقد كتبت زوجتى رسالة بالموافقة السريعة.

أخذنا القطار من محطة فيكتوريا (فيما أتذكر) إلى «كنت»، وكان يوما باردا قاتما، ولكن النشاط الذى دب فى قلبينا—إلى جانب جمال الطريق—جعل من الرحلة شيئا ممتعا حقا. وكان الزوج فى انتظارنا—على الرصيف—طبقا لما كان موضحا برسالة الدعوة، فأخذنا بسيارته «الفلوكس فاجن» إلى منزله، وقد وجدنا السيدة—سيدة «المجلس البريطانى»—فى الانتظار،

فرحبت بنا ترحيبا حارا، وقادتنا إلى ردهة كبيرة دافئة نظيفة ذات واجهة زجاجية هائلة تطل على البراح الأخضر. وقلت لنفسى : وإذن فهذا هو الريف (ولم يكن بالضبط هو !) ياله -مرة أخرى- من شيء رائع، شبيه - من حيث روح الخضرة-بحقولنا فى جهينة، وفاض بى بحر الذكريات والحنين إلى الأوطان !.

فى الغداء قدم لنا طعام إنجليزى، وكان - لعدم تعودى عليه- لا يشعرنى بالشبع، وفى الرابعة قدم الشاى والحلوى، وفى الخامسة كنا فى طريق العودة. كانت التجربة رائعة ومثيرة، وكان الجو باردا إلى أقصى حد. وقد أحسسنا بالجوع، ونحن فى طريق العودة، فلم نكد نصل إلى بيتنا حتى أعددنا طعاما مصريا عظيما. كانت مضيفتنا تفيض بالحنان، وكان زوجها متحفظا قليل الكلام، وقد عرفنا أنهما لا ينجبان.

وأصبحت هذه أول أسرة إنجليزية صديقة لنا. دعوناها- فيما بعد-إلى منزلنا، وأعدت زوجتى مائدة مصرية، ثم دعتنا هذه الأسرة-بعد سنوات-إلى قرية قرب «يوركشاير» قرب مسقط رأس شكسبير، وقضينا أياما جميلة فى عمق الريف الإنجليزى، وزارتنا السيدة منفردة، وكانت قد وقعت فى غرام مى طفلتنا.

الأولى بعد إنجابها، واستمرت ترسل لنا كل عام «تقويم» العام الجديد. ثم انقطعت أخبارها منذ حوالى عام ١٩٧٠. وقد بذلنا محاولات عدة لإعادة الاتصال، مرة عن طريق بنكها الخاص، ومرات عن طريق عناوينها الموجودة لدينا، ولكن دون جدوى. كانت فنانة ترسم بالزيت، وقد دعتنا مرة لزيارة معرضها فى وسط مدينة لندن، وأهدت إلينا لوحة من عملها لمنظر ريفى يمثل ما يراه الناظر من الواجهة الزجاجية لبيتها الذى زرناها فيه فى «كنت»، ولاتزال هذه اللوحة معلقة على جدران حجرة جلوس منزلنا فى مصر الجديدة، وكثيرا ما نتذكر–فى ساعات الصفو– هذه السيدة التى أحاطتنا بعطفها فى وقت كنا فيه فى أشد الحاجة لهذا العطف، ثم اختفت من حياتنا فجأة بلا سبيل إلى معرفة مصيرها. نتذكر، ونتحسر، وليس إلى إعادة الأيام الماضية من سبيل !

وانطوى الشتاء، فذابت الثلوج التى كانت قد تجمدت شهورا، وتفتحت الطبيعة فى وجوه البشر، وأزياء النساء، وفى الحدائق، وفى النسيم، وأعطت بدون حدود. كانت كل فرصة من دفء يوم عابر مشرق تحول الطرقات إلى أعياد فتقدم الحياة

نفسها فى فرح، وكنت دائما أعتبر نفسى متفرجا، وليس طرفا مشاركا فى هذا العرس العنيف !.

ظل صراعى مع اللغة الإنجليزية شغلى الشاغل. كانت مدرستى المنزلية تطرى تقدمى، وكانت مدرستى فى الجامعة- وهى إنجليزية جامعية بمعنى الكلمة-ترى أننى مثابر، وأعد بالنجاح، ولكننى على عكسهما كنت أحس أن الأمور ثابتة فى مكانها. كنت كالمريض الذى يتماثل ببطء للشفاء، وتمضى أيامه متشابهة دون أن يحس بفارق يذكر فى صحته بين يوم وآخر. وكانت أحلامى تخيل لى أننى سأجد نفسى-فى صباح اليوم التالى - أتحدث الإنجليزية بطلاقة-كما يتحدث السعيد بدوى - ولكن ذلك الصباح كان يحمل لى دائما واقع الليلة الماضية. كان لسانى ثقيلا، وقلبى مفعما، وذهنى مضطربا بالأفكار، وكان الناس-وهم معذورون-يتحدثون إلى بالقدر الذى أستطيع أن أعبر لهم عنه، وكان ما أستطيع أن أعبر عنه سطحيا جدا. كنت أجرِّب-فى صمت-أعمق المشاعر، وأوضح الأفكار، حتى إذا حاولت التعبير انحصر كل ذلك بالضرورة فى الكلمات القليلة البسيطة التى أعرفها، فيأتى الكلام شبيها بكلام

الأطفال. وكان هذا يؤلمنى إلى أقصى حد. كنت أتقدم نحو الثلاثين من عمرى، وقد تخرجت فى الجامعة وتزوجت، ولكن كل ما يصلنى بالناس كلام حول «الجو»، وحول اسمى، وبلدى، وموضوع دراستى. . إلخ. وكنت لا أحس بنفسى إلا حين أخلو إلى زوجتى ونتحدث، أما فى الخارج-فى الشارع، والكلية، والمجلس البريطانى، ومدرسة الحى-فأنا طفل كبير! كنت أشعر على نحو ما بالمهانة، وأقول لنفسى : لابد لهذه الحالة الغريبة من نهاية !

واقترب موعد الامتحان-وكان فى نظر الكلية «الفرصة الثانية» لى-ولم أكن قد وصلت-لدى نفسى-إلى درجة تحقق لى أى أمل فيه، ولكن الكلية شددت على حضوره حتى يتسنى تحديد مستوى الطلبة، ومدى تقدمهم. وحضرت الامتحان، وصدق ظنى، فلم أكتب فى ورقة الإجابةسوى شذرات مضطربة. وجاءت النتيجة كما توقعت فعدت إلى فصول الدراسة من جديد، مع تلقى ملاحظة من الكلية تقول إنه سينظر فى إلغاء تسجيل أى طالب لا يحقق مستوى مرضيا فى الامتحان القادم الذى يعقد بعد ستة أشهر. وكان هذا عندى احتمال إلغاء التسجيل، ومن ثم مواجهة الضياع الأكبر الذى قد يكون من بين احتمالاته العودة إلى أرض الوطن «بخفى حنين».

مـرت شـهـور الصـيـف حـافـلـة بـالـعـمـل، وبـالأحـاسـيس الـمـتـراوحـة بـين المـتـعـة ، والـمـلـل. تـوقـفـت الـدراسـة فـي الـكـلـيـة، واستمرت مدرستى المنزلية تـأتى كعادتها. وشـاع الدفء، ونمت معرفتنا بـأسرة صـاحب المنزل-وهـى أسرة قبرصية-واتسعت خطواتنا فعبرنا الحى إلى قلب المدينة، ونزلنا أيام الآحاد إلى ميدان «الطرف الأغر» لنطعم الحمام، ولنمد خطوتنا عبر شارع «ستراند» إلى شط «التيمس»، ثم عرفنا طريقنا عصر كل أحد إلى «ركن الـخـطـبـاء» فـى حـديـقـة «الـهـايـدبـارك» عند محطة «ماربل آرش». وكنت قد سمعت عنه قبل مجيئى إلى لندن، وأصبحت الآن من رواده الدائمين. كنت أذهب-مع زوجتى-ونتنقل من خطيب إلى خطيب ولم أكن أفهم كل-أو نصف-ما يقال ، ولكننى كنت أستمتع إلى أقصى حد. وما يزال بنا الحال حتى نستقر لدى السيد «وبستر»، وهو أيرلندى يدعى أنه مسلم، فنستمع إلى حديثه، ونتمتع بالمناوشات التى تقوم بينه وبين مناوئيه، كما نتابع المناقشات الجانبية التى غالبا ما تنتهى بتدخل البوليس. فإذا حل الظلام مشينا فى «جرين بارك» فننظر نظرة خاطفة فى النادى المصرى، أو نمشى فى «كيرزن ستريت»، ونعبر إلى ميدان

«بيكاديللى»، فإذا حل بنا التعب عرجنا على مقهى صغير فى أحد الشوارع فتناولنا شيئا، ثم عدنا-بطريق مترو الأنفاق-إلى منزلنا.

كانت رحلة الأحد-الطويلة نسبيا-مجددة لروحى، ومنعشة لقلبى إلى أقصى حد. كنت أحس بالزهو، وبارتفاع روحى المعنوية، لمجرد أننى أسير فى شوارع المدينة العظيمة «لندن». لقد علمنى محمد أبو المجد أن المشى فى شوارع القاهرة ثقافة فمن لى بمن يخبره الآن أننى أمشى فى شوارع لندن؟ كنت أحسد نفسى، وأمتلئ بالأمل فى المستقبل والخوف منه ! وكنت أتصور أننى إذا حققت أملى فى تعلم الإنجليزية، وقراءة الأدب الإنجليزى، والحصول على الدكتوراه، والعودة إلى دار العلوم عضوا فى هيئة التدريس، فقد ملكت الدنيا !

وفى الصيف امتدت ساعات النهار، فكان الضوء يبقى على الأرض حتى العاشرة مساء ! وكان التعبير عن العواطف فى الشوارع يزلزل قلبى، كما كان غنى الطبيعة-التى تتعهدها الأمطار بالسقيا-يحملنى إلى آفاق غامضة مجهولة. وفى الصيف بدأت أقرأ قصصا مبسطة للكتَّاب المشهورين، وترددت

على حوانيت بيع الكتب قرب الجامعة، وفى الشارع المعروف بها «تشارنج كروس رود»، وفى الصيف أصبحت زوجتى حاملا فضاعف هذا من متعتنا وإحساسنا بأنفسنا.

وحين اكتمل لنا فى لندن عام جلست أستعرض أحوالى، وأحصى الأرباح والخسائر. حقا إن مشكلة اللغة الإنجليزية لاتزال مستعصية، ولكننى أستطيع أن أقوم الآن بأشياء ما كنت أستطيع أن أقوم بها من قبل : إننى أستطيع الآن أن أشترى ما أحتاجه بسهولة، وأستطيع أن أتجول فى لندن دون حاجة إلى دليل، وأستطيع كذلك أن أتبادل الحديث - دون حرج - مع الناس، وأن أستمع إلى نشرة الأخبار فأفهم الكثير، وأستطيع أن أذهب وحدى بعيدا حتى مطار «هيثرو».

كتب إلىَّ السعيد بدوى بموعد قدومه فى أواخر الصيف، فذهبت لألقاه فى المطار، ولم يكن قادما للإقامة فى لندن، وإنما كان عابرا إلى دبلن لينضم إلى زوجته وطفلته الأولى «نادية». وقد لقيته فى المطار ويومها أدركت من جديد مدى الحب الذى يكنه قلبى له. كنت كمن فقد نفسه ثم وجدها. وأذكر أنه وصل فى اليوم الذى سقطت فيه طائرة «داج همرشلد» السكرتير الأسبق

للأمم المتحدة، فى أحراش إفريقيا. وفى المطار التقطت صحيفة المساء «الايفننج ستاندارد»، وقرأت له بصوت مسموع الخبر الرئيسى. كان الكلام سهلا، ولكن وجه السعيد أشرق بضوء سرور لا أنساه ماحييت. وقد أطرى تقدمى فى اللغة -دون تحفظ- فأدخل علىَّ ذلك سعادة بالغة. وربما كان الأمر لا يعدو دهشة السعيد للفارق بين حالتى الآن، والحالة البائسة التى تركنى عليها فى اللغةالإنجليزية، ومع ذلك كان وجهه ينطق بود لم أخطئه، ففاضت روحى بالسعادة، وعرفت أننى وجدت فيه صديقا من نوع فريد كنت أسعى إلى لقائه دائما.

وأقبل الخريف فتهيأت لعام دراسى جديد، وكان علىَّ أن أتقدم لامتحان اللغة الإنجليزية للمرة الثالثة. وفى هذه المرة الثالثة تخلت عنى الجرأة التى واتتنى فى المرتين السابقتين فلم أدخل الامتحان. ويبدو أننى -وقد أحرزت بعض التقدم- أصبحت أحس بالفارق الحقيقى بين مستواى والمستوى المطلوب. وقد تعرضت - بسبب غيابى عن الامتحان - لمساءلة من الأستاذ سيجال - رئيس دائرة الشرق الأوسط بالكلية - وأحسست أن موقفى فى القسم أصبح حرجا.

ولم أخفف من ساعات العمل أو من كيفيته، ولم تفتر عزيمتى قط . كانت بعض معالم الطريق تتضح لعينى بالتدريج، ولكن الأمور كانت لا تزال مضطربة غاية الاضطراب. بدأ الصراع مع اللغة يأخذ معنى، وبدأت القراءة تعنى شيئا. بدأت أخرج من العمل بنتيجة ما، وقد جعلنى هذا أتشبث ولا ألين. وأعطانى تشجيع أستاذتى الإنجليزية فى الجامعة «مس دونت» دفعة كبيرة. كنت أجلس دائما فى الصف الأول أمامها تماما، ولا أتخلف عن درس قط، وأنصت إليها بكل نفسى، وأنفذ ما تكلفنى به متعثرا، ولا أشترك فى المحادثة إلا إذا طلبت منى ذلك. وفى أمسية من أمسيات فبراير١٩٦٢بدت منها أول إشارة لصالحى. كانت تعلق علىَّ بعض الواجبات المنزلية، وكنت قد استخدمت المداد الأحمر فى الكتابة (ولم أدرك إلا مؤخرا أن ذلك ما كان ينبغى)، ونسيت كتابة اسمى، فرفعت ورقة إجابتى وقالت : (من ذلك الذى يكتب بدم قلبه؟)، فابتسمت لها فى صمت، فقالت : «هو أنت!ومع ذلك فأنت تتقدم على نحو يدعو إلى الإعجاب!». وكانت هذه هى الإشارة الثانية التى أسعدتنى بعد إشارة السعيد بدوى التي تلقيتها فى مطار «هيثرو». وبعد الدرس استبقتنى الأستاذة، ودعتنى فى لطف إلى تناول الشاى فى منزلها مع عدد من

طلابها، ولما اعتذرت بأن الموعد المحدد لا يلائمنى لأن زوجتى مريضة (وكانت زوجتى تعانى من وعكات الحمل) حمَّلتنى السلام إليها. كانت «مس دونت» فى حوالى السبعين من عمرها، متينة البنيان، نشيطة إلى أقصى حد، تعول على النطق الصحيح تعويلها على الكتابة الصحيحة. وكانت أحيانا تضع يدها على حناجرنا - طلابا وطالبات - لتختبر ذبذبات أصواتنا، ولتساعدنا على النطق الصحيح. وقد أثنت مرة على نطقى وانتظام أسنانى فأوقعنى ذلك فى حرج بالغ.

بدأت أقرأ الصحف بانتظام، وأدرب نفسى على الكتابة، وأتردد على قاعة المطالعة الشهيرة فى المتحف البريطانى، وأتعرف على واجهات المسارح فى شارع «شافتسبرى». ومرة توغلت فعبرت التيمس على «جسر وستمنستر»، وتجولت على الشاطئ الذى تقع فيه قاعة الموسيقى «الفيستيفال هول». ومن ناحية أخرى أتيح لى أن أتتلمذ على كاتب إنجليزى لاشهرة له اسمه «مستر كنج» درَّس لى موسما فى مدرسة خاصة (لا أتذكر اسمها الآن). كان المكتب المصرى قد أوقف دفع أجر مدرستى الخاصة، وقصر المساعدة على الدروس التى تقدم فى «مدارس» فاحتفظت بمدرستى الخاصة- د. فولك- على حسابى، والتحقت

بتلك المدرسة على حساب البعثة التعليمية فكان مدرسى فيها «مستر كنج». كان مهيبا، جادا، بشوشا، وكنت قد أصبحت قادرا على السؤال والمناقشة. وكان هو مليئا بالحماسة والحنان، وكنت أصحبه بعد نهاية الدرس مشيا إلى محطة «نايتس بريدج» فنتبادل الحديث حول الأدب الإنجليزى. وقد استفدت منه كثيراً جدا، وأهدانى - قبل أن أترك المدرسة - كتابا من تأليفه عن رحلته إلى برشلونة سماه «برشلونة مع الحب» مع عبارة إهداء رقيقة. ولا يزال الكتاب عندى يحتل مكانا عزيزا فى مكتبتى.

وفى ٧مارس ١٩٦٢رزقنا بأول مولودة لنا. كانت زوجتى قد أحست آلام الوضع فى الواحدة صباحا فذهبنا فى تاكسى إلى «مستشفى الكلية الجامعية». وفى الصباح أخبرت تليفونيا بأننى رزقت بطفلة. كان سرورى وسرور زوجتى عظيما، وسميناها «مى». وفى يوم من أيام مايو ١٩٦٢ أديت امتحان اللغة الانجليزية وبقيت أياما عصيبة فى انتظار النتيجة، وناجت زوجتى طفلتنا بأغانٍ ريفية جميلة، معلقة على قدومها السعيد أعظم الآمال.

ظهرت نتيجة الامتحان مساء الجمعة، ولم أطق الانتظار حتى صباح الإثنين، فاتصلت تليفونيا بمدرستى، وجاءنى

صوتها مرحا واثقا يهنئنى بالنجاح! لم يكن ما أحسست به فرحة بل كان دهشة كاملة. وقد أدركت مدرستى ذلك فقالت لى مداعبة : «ينبغى أن تكون أول من يصدق نجاحك، وإلا فكرت الكلية فى سحب هذا النجاح». تركت التليفون، وصعدت الدرج قفزا لأخبر زوجتى، ولكنها كانت-بالفعل-فى الردهة العلوية تستمع. ولا أذكر أننى فرحت فى حياتى مثل فرحى لاجتياز هذا الامتحان : كان أملا عظيما جدا من آمال حياتى أن أحصل على اعتراف من مؤسسة علمية عظيمة كجامعة لندن بأننى أصبحت فى مستوى يمكننى من متابعة المحاضرات فيها باللغة الإنجليزية . وصح عندى أنه باجتياز هذا الامتحان أصبح الطريق مفتوحا لبلوغ هدفى النهائى. وقلت لنفسى : إننى لا أبالى الآن أن يكون هذا الهدف قريبا أو بعيدا، سهلا أو صعبا. حسبى أننى أستطيع الآن أن أدخل الحياة الأكاديمية من بابها الأمامى، وأن أعبر عن أفكارى بثقة، وأن أنال حسن ظن الأستاذ «سارجنت»، وأن أبدأ دراسة «النقد الأدبى».

أبلغت بنتيجة الامتحان بعد ذلك بحوالى أسبوع، فذهبت للقاء الأستاذ «سارجنت»، الذى أبدى سروره المتحفظ بنجاحى،

وأخبرنى أنه سيبذل محاولة لدى مجلس الجامعة لإعفائى من امتحان المعادلة، وبذلك يمكننى أن أبدأ العمل فى الرسالة فورا. ولم ينقض العام الدراسى (يونيو١٩٦٢) حتى كان قد جاءنى بالفعل ما يفيد أننى أعفيت من هذا الامتحان.

قضينا الصيف فى متعة حقيقية، بين حدائق لندن العامرة، ودفئها النادر المثير، وبلغت الحرارة درجات قياسية فى بعض الأيام. وكنت أذهب إلى حمام سباحة البلدية فى الحى كثيرا. كنت سباحا ماهرا، تعلمت العوم على يد الجيل السابق على جيلى من أولاد عمى فى جهينة كما أشرت فى الإهداء. وقد تبينت أن طعم السباحة فى المياه الزرقاء النظيفة كان مختلفا. ولم أكتف بحمام البلدية، فمددت قدمى إلى حمام سباحة اتحاد جامعة لندن، وكان – على عكس حمام سباحة البلدية – مسقوفا ودافئا! كنت أتخيل –وقد جزت امتحان اللغة الإنجليزية–أن الجزء الأكبر من مشكلاتى قد انتهى، وكان هذا الخيال يضاعف إحساسى بجمال المكان، وسحر الصيف، وحيوية الناس. وقد أضفت «مى» على حياتنا، طابعا غريبا جميلا، فأعدنا ترتيب حياتنا وبخاصة ما يتصل بأمور النوم

واليقظة والطعام، والخروج إلى الشارع، والاستقرار فى البيت، وأشياء أخرى كثيرة.

وفى هذا الصيف ترددت كثيرا على قاعة المطالعة العامة فى المتحف البريطانى، وفحصت كثيرا من البطاقات فى فهرس المكتبة الغنى، وعشت بالخيال اللذيذ مع مشاهير العالم الذين طالعوا ساعات ممتدة فى هذه القاعة : برناردشو، ولينين، وغيرهما، وسبح خيالى مقارنا بين قاعة المطالعة فى مكتبة «الأمير فاروق» بأسيوط وفى «دار الكتب المصرية» بباب الخلق، والمتحف البريطانى، وتعجبت لدورة الدنيا، وقلت لنفسى : انظر أين كنت وكيف أصبحت؟ وانتابتنى مشاعر الفخر، والزهو، والخوف، والقلق، مما ستأتى به الأيام!

وجَدْتُ كثيرا من الكتب العربية التى أريدها فى مكتبة الكلية ومكتبة الجامعة، ولم ينته الصيف حتى كنت قد اخترت موضوع الدراسة، وأعددت فيه قائمة بالمراجع، وحددت ما لايوجد منها فى لندن. وفى مطلع العام الدراسى ١٩٦٢- ١٩٦٣حصلت على موافقة الأستاذ «سارجنت» على الموضوع، وكان بعنوان «المرأة كاتبة وناقدة فى مصر الحديثة»، وفى

الوقت ذاته طلبت من الأستاذ أن يرتب لى القسم دروسا فى الأدب الإنجليزى فى «الكلية الجامعية»، وكانت تقع على بعد أقل من كيلومتر من كليتى، فأجرى اتصالاته بسرعة وحدد لى موعدا أقابل فيه رئيس قسم اللغة الإنجليزية هناك الأستاذ «سازرلاند»، وحين ذهبت للقائه وجدت أن رسالة تقديم رائعة من الأستاذ «سارجنت» قد سبقتنى إليه.

كان الأستاذ «سازرلاند» يجلس إلى مكتبه يدخن غليونه حين طرقت بابه، فهب واقفا ودعانى إلى الجلوس فى أدب جم. ثم عقد معى محادثة طويلة عرض علىَّ خلالها الموضوعات التى يدرسها القسم فاخترت من بينها ثلاثة موضوعات : «تاريخ النقد الإنجليزى ومبادئه» (وكان يدرسه الأستاذ نفسه) و «الفن القصصى والمسرحى فى الأدب الإنجليزى الحديث» و«تحليل الشعر». وهكذا وجدت نفسى مشغولا ثلاثة أيام فى الأسبوع فى دراسة الأدب الإنجليزى، كما وجدت نفسى مضطربا فى بيئة جديدة.

كنت قد اختلطت فى كليتى-مدرسة اللغات الشرقية والأفريقية-بعدد قليل من الطلبة الإنجليز، وعدد كثير من العرب والهنود والأفارقة، وقد وجدت نفسى فى البيئة الجديدة مختلطا

بعدد كثير من الإنجليز، وعدد قليل من الأوروبيين، وقلة نادرة جدا من الجنسيات الأخرى. وقد تمتعت بالخدمات التى يقدمها القسم، واطلعت فى مكتبته، وحضرت أمسياته الثقافية والاجتماعية، وطاب لى المشى الطويل تحت المطر فى الساحات الفسيحة الخضراء «للكلية الجامعية»، واعتبرت كل ذلك نافذة عظيمة فُتحت فى حياتى.

وانتظم عملى يومين فى كليتى لحضور ترجمة كتاب «البخلاء» للجاحظ، وخصصت بقية وقتى للعمل «الاستطلاعى» فى الرسالة. كنت أخرج فى الصباح الباكر، وأشتغل بحضور الدروس هنا وهناك حتى وقت الظهيرة، وأتناول الغداء فى مطعم الجامعة، وغالبا ما يكون ذلك مع السعيد بدوى، ثم أقضى بقية الوقت قارئا فى قاعة الاطلاع، فى كليتى، أو فى الجامعة أو فى المتحف البريطانى، أو فى الكلية الجامعة. وذلك حتى السابعة، موعد انتهاء العمل فى هذه الأماكن، وكانت قراءتى موزعة بين الرسالة والأدب الإنجليزى، والقراءة العامة.

وتوطدت علاقتى أكثر بالسعيد بدوى. وجدت فيه كل ما يطمح الإنسان أن يجده فى صديق. كان قد انتقل من مسكنه فى

الجنوب إلى «مازويل هل» فى الشمال، فتبادلنا الزيارة على فترات متقاربة. وقد أحببنا أسرته، وأصبحت «نادية» صديقة «لمى». وكنت أتمتع إلى أقصى حد بصحبته. نلتقى فى الجامعة كل يوم تقريبا ونتناول الغداء معا. وفى بعض الأحيان نعطى أنفسنا إجازة من العمل فى المكتبة بعد الظهر، ونتجول فى لندن، وكان السعيد يعرفها جيدا. كنا نبلغ أحيانا فى تجولنا حد «الهايدبارك» «والويت هول»، ونمر على مكتبة «فويلز» الشهيرة فنرى آخر ما أخرجته المطابع، ويشترى كل منا ما يتصل باهتماماته، وتسمح به ميزانيته.

وأصبحت أقرأ الصحف بانتظام، وأرتاد الندوات التى ينظمها اتحاد الجامعة، وكانت تعطى اهتماما بالغا لمشكلات الساعة السياسية، ويكتنفها الصخب كثيرا، فتصبح شبيهة بركن الخطباء فى «هايدبارك». وقد أعجبنى فى هذه الندوات الانطلاق والحرية، ونضج شخصية الطلبة فى سنهم المبكر. ومع ذلك لم يتجاوز حضورى هذه الندوات الفضول والرغبة فى المعرفة، فلم أشارك فى أى منها، وما كنت ذا اهتمامات «اتحادية» قط!.

كذلك بدأت فى هذه الفترة صلتى بالمسرح، وصالات الموسيقى والمعارض الفنية. وكنت من قبل أسمع عن كل ذلك،

وأتوق إليه، ولا أجرؤ على ارتياده. شهدت - مع زوجتى أحيانا حين كنا نجد من يرعى «مى»، ووحدى أحيانا - مسرحيات «صوت الموسيقى»، و «مصيدة الفئران»، و «المعجزة» (وهى قصة هيلين كيلير)، و «روس» (وهى قصة لورنس العرب) وبعض مسرحيات شيكسبير أحيانا فى لندن، وأحيانا فى مسقط رأسه «ستراتفورد ابون افون». والذى لا أنساه أبدا ذلك؛ الشعور العنيف الذى اجتاحنى ليلة شهدت مسرحية لوركا «عرس الدم»، ممثلة على مسرح صغير فى شمال لندن. كنت قد قرأت المسرحية مترجمة إلى العربية قبل سفرى، وعدت فقرأتها مع مدرستى فى ترجمة إلى اللغة الإنجليزية، ولكننى حين شاهدتها على المسرح جاءنى عنفوانها فى صيغة جديدة وطعم جديد، وأدركت أننى أستطيع أن أفرق الآن - تفرقة غامضة - بين مذاق العاطفة «الإسبانية - اللاتينية - العربية» ومذاق العاطفة «السكسونية».

ولم يكن حظى مع الموسيقى عظيما. كنت مفتونا باللحن والصوت منذ طفولتى، ولكننى لم أجد الطرب العميق فى الموسيقى الأوروبية. ورغم إصرارى على مداومة الاستماع -ولو من باب تثقيف النفس - بقيت على الهامش فى الموضوع،

وبقيت الموسيقى الأوروبية – فى تلك الفترة – اهتماما عقليا لا متعة وهواية. جلست إلى المذياع أستمع إلى ما يسمى «بالبرنامج الخفيف» ساعات طويلة، وذهبت إلى «الفيستيفال هول» و«الويت هول» (وبخاصة فى موسم «البروميناد»). وبعد عودتى من البعثة كنت أستمع إلى الشرح الذى كان يقدّمه الدكتور حسين فوزى فى البرنامج الثانى، وأستمع إلى الموسيقى، ولكننى لم أحس أننى تقدمت فى هذا المجال كثيرا. وبعد تقديم الإذاعة للبرنامج الموسيقى أصبحت من عشاقه، ولكننى لم أطور معلوماتى فى الجانب النظرى. وأنا أكتفى الآن بضبط المذياع على البرنامج الموسيقى–الذى يستمر حتى الثانية صباحا–وأستمتع خاصة بالجزء الخفيف الذى يقدم بعد منتصف الليل؛ أجلب به النوم إلى عينى، وأريح به أعصابى، وأسبح معه فى الملكوت.

وترددت على صالة الفن الكلاسيكى «الناشيونال جاليرى» دون استيعاب حقيقى « وتفرجت» على الرسوم الحديثة فى «التيت جاليرى» وفى زيارتى لباريس زرت «اللوفر»، وفى مدريد زرت متحفها الوطنى. ولكننى لا أستطيع أن أصف نفسى

بأننى عاشق للفن. إن لدى رغبة صادقة لمحاولة الفهم، ولكننى لم «أستوعب» قط. وكنت قد عزوت السبب فى ذلك فى صفحات سابقة إلى قصتى-أو عقدتى-مع محرم أفندى فى معهد أسيوط الدينى، ولكننى-للحق-لا أدرى السبب بالضبط!.

بانتهاء العام الدراسى ١٩٦٢-١٩٦٣تجمعت لدى خيوط عن رسالتى، ولندن، وانجلترا، والأدب الإنجليزى، بعضها واضح وبعضها مشتبه، وكانت شهيتى للاستزادة-فى كل ناحية-مفتوحة إلى أقصى حد. كنت فى سباق مع الوقت، ولم أضيع منه شيئا. وكان أحمد مختار قد حصل على الماجستير من دار العلوم والتحق-بمنحة دراسية-بجامعة كمبردج. وفى العام نفسه ذهبت مع السعيد بدوى وعبد الحكيم حسان لحضور مؤتمر المستشرقين البريطانيين الذى انعقد فى اكسفورد، وفيه أيضا تفاهمت مع الأستاذ سارجنت على أن أعود فى «عطلة عمل»لأجمع ما ينقصنى من مادة لإعداد بحثى، وبخاصة من الصحف والمجلات المصرية. وفى يونيه ١٩٦٣ كنا نركب البحر من جديد عائدين لقضاء شهرين فى أرض الوطن.

كانت «مى» قد بدأت تمشى «على رجلين». وقد اشترينا لها عربة ندفعها فيها إذا تعبت من المشى، ونشد إليها وثاقها جيدا،

وكان للعربة غطاء بلاستيكى يخيم عليها وقت المطر فلا تبتل. واشترينا لها كذلك حزاما للمشى، يربط على وسطها فتتجول بحرية، ولكن «ثنياه باليد». وقد حزمنا متاعنا-وكان دائما قليلا-وقضينا عشرة أيام رائعة فى البحر. كنا نعرف الآن كيف نتمتع بالمرافق المتاحة على السفينة، فكانت رحلة الإياب هذه أمتع من رحلة الذهاب الممتعة. كنا نتجول بحرية فى القاعات الواسعة، والأبهاء الفخمة، ونجلس فى المقاعد الوثيرة مستمعين بالموسيقى العذبة التى تنبعث دون انقطاع، ونشترك فى السمر الليلى الذى ينعقد فى سطح السفينة حتى ساعات متأخرة من ليالى الصيف الجميلة. وقد مررنا فى الطريق على «نابولى» فقضينا بها سحابة يوم. والذى ينزل من ضباب انجلترا إلى «نابولى» البيضاء النظيفة المشرقة يشعر وكأنه خرج من غبش الفجر إلى ضوء الضحى. وفى آخر ليلة آوينا إلى الفراش كالعادة، وأيقظنى قبل الأوان - حوالى الرابعة صباحا - شيء كالهاتف، فأزحت الستار عن النافذة البيضاوية فتلألأت بورسعيد أمامى كالماسة! كنت - بالصدق - فى شوق غامر إلى بلدى وأهلى، وأحسست برغبة فى استباق الزمن والقفز إلى البحر.

زرنا – فى عطلتنا – جهينة زيارة قصيرة، وأقمنا فى بيت إبراهيم الترزى المضياف فى مصر الجديدة، وبدأنا العمل. كنا نترك «مى» فى رعاية الأهل، وأذهب مع زوجتى إلى دار المحفوظات فى القلعة كل صباح، فنعمل بجد فى الصحف والمجلات حتى الثانية بعد الظهر. وقد عاد إلىَّ الماضى حيا؛ فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى أطالع فيها صحافة الماضى بمثل هذه الطريقة المنتظمة شبه الشاملة، وملأنى الإحساس بتطور التاريخ السياسى والاجتماعى والثقافى فى مصر، كما ملأنى الإحساس برؤية الأسماء اللامعة فى الصحافة، أملا فى أن أكون فى يوم من الأيام شيئا مذكورا فى بلدى. كانت الأفكار تتولد فى رأسى، وكنت أتوق إلى الكتابة، ولكننى أحسست أننى– ولم أخرج بعد من طور التكوين–لا يصح أن أتطلع إلى الخروج من «مجموع الناس» إلى «آحادهم». وخرجت من الرحلة فى بطون الدوريات والصحف بعاطفة واسعة وأفكار مفيدة. كنت أقرأ وزوجتى تقرأ، وتعرض علىَّ ما تعتقد أنه يهمنى فأحدد ماآخذ وما أدع، ثم أعود مسرورا حين تتمخض الرحلة عن أى «صيد»، ونروِّح عن أنفسنا فى المساء فنخرج لتناول العشاء، أو لزيارة

المعارف، أو لتجديد الذكريات فى أرجاء القاهرة. وحين انتهت هذه العطلة الصيفية قدرنا أنها حققت أغراضها.

عدنا إلى لندن عن طريق ما يسمى «بالبحر القصير» : ركبنا السفينة من الإسكندرية إلى «مارسيليا»، ومررنا «بجنوا» فى إيطاليا، ومن «مارسيليا» سافرنا بالقطار إلى «باريس»، ومنها إلى «كاليه»، وعبرنا «بحر المانش» إلى الشاطئ الإنجليزى، ووصلنا إلى لندن بالقطار. كانت رحلة مرهقة إذا قيست بالرحلة المريحة التى تمتد من بورسعيد إلى الشواطئ البريطانية، ولكننا كنا سعداء لمرورنا بالتجربة الجديدة. ووجدنا السعيد بدوى فى انتظارنا من جديد. وقد تنقلنا فى السكن مرة ومرة حتى استقر بنا الحال فى شمال لندن مرة أخرى: «٩ايفى جاردنز شمال لندن ٨»، وكان السعيد قد انتقل إلى شارع قريب لا يفصله عنا سوى حوالى خمس دقائق على الأقدام.

كان عامنا الرابع فى لندن مليئا بالمعرفة، ومحققا لبعض الرجاء، وجالبا لبعض الخيبة! بدأت العمل الجاد فى الرسالة، وتابعت دروس الأدب الإنجليزى، مختارا هذه المرة دروسا يلقيها الأستاذ «ساذرلاند» عن أعلام الأدب الإنجليزى،

ومعيدا دروس «تحليل الشعر». وقد أدركت أن فهم أدب أمة أخرى أمر من أشق الأمور؛ فقد يخيل للإنسان أحيانا أنه فهم ما يقرأ لمجرد أنه يعرف معنى الكلمات والعبارات، والواقع أنه بعيد جدا عن الفهم. بل إننى لست أذهب بعيدا حين أقول إن فهم الأدب أمر من أشق الأمور حتى لو كان أدب الأمة التى ينتمى إليها الإنسان، فكم من العرب يفهمون الأدب العربى حق الفهم؟ بل كم من المختصين يفهمون الأدب العربى حق الفهم؟ إننى أكتب هذا والألم يملأ قلبى، ولكننى لا أستطيع أن أحجبه بحال من الأحوال.

كتبت مقالة تمهيدية فى موضوع بحثى، وعرضتها على مدرستى د. فولك، فأبدت ملاحظات عدة على الأسلوب، واقترحت أن تعيد صياغة المقالة كلها، ولكننى وكنت قد سمعت أن بعض تلاميذها يترجم لها من نص عربى فى يده وهى تكتب له ما تفهمه منه–وقفت ضد هذه الفكرة وقفة المستميت. كنت أريد أن أعرض أفكارى فى اللغة التى شقيت كل هذا الشقاء فى تحصيلها. لتكن لغتى ضعيفة، ولتكن محتاجة إلى مراجع، أما أن يكتب لى شخص آخر ما أعرضه باسمى فأمر أراه مُخلا بالشرف والصدق ومعنى التكوين. وحين استوت المقالة بخطى «المهلهل»

ومستوای « المتواضع» قدمتها إلى الأستاذ «سارجنت».وقد قرأها فى أسبوعين، ثم استدعانى وناقشنى الحساب. وكان حسابه عسيرا ويسيرا فى آن، وقد استحسن مواضع رأيتها أنا عادية، ولم يستحسن أمورا رأيتها جيدة. كنت أجرب الكتابة العلمية للمرة الثانية–بعد أن جربتها بالعربية فى دراسة وتحقيق شعر «القطامى» التى لم تر النور–وأجربها بالإنجليزية لأول مرة. ولم يخالجنى شك فى أن الأستاذ «تساهل» معى نوعا ما فى موضوع اللغة، وكأنه تركنى للأيام!.

وفى هذا العام الرابع زرت «أدنبره» عاصمة اسكوتلندا مع مجموعة من الزملاء لحضور مؤتمر المستشرقين البريطانيين، وكانت الرحلة الطويلة بالقطار بين الخضرة جميلة جدا ولم أشعر أن المؤتمر أضاف كثيرا إلى معرفتى بالتراث العربى أو الأدب العربى الحديث، ولكننى سررت إذ رأيت مجموعة أخرى من المستشرقين. كنت قد رأيت من قبل «جب» يحاضر فى أكسفورد و «آربرى» يحاضر فى المركز الإسلامى فى لندن، وقد رأيت فى أدنبرة «مونتجمرى وات» و «بستون» وغيرهما. وقد نزلنا فى فندق يقع على بحيرة، وكانت الأسماك تصطاد من البحيرة،

وتقدم لنا طازجة على مائدة الإفطار. وقد تجولنا فى المدينة على نحو واسع، وزرنا قلعة «أدنبره» الشهيرة.

وفى خلال هذا العام طلب منى الأستاذ «سارجنت» فصلا كاملامن الرسالة استغرق إعداده منى قرابة شهرين. وكان الأستاذ «سارجنت»–على الجملة– عطوفا ومتحفظا، مواعيده منضبطة كالساعة، وتوجيهاته حاسمه : طلب إلىَّ مرة أن أتوسع فى نقطة فلما سألته : وكيف أفعل ذلك ؟ (وأنا أدرك الآن أن السؤال كان غير موفق!) نظر إلىَّ وقال بإنجليزيته التى كانت أحيانا أقرب إلى «الغمغمة» : «اذهب وابحث»، وطلب إلىَّ مرة أن أراجع شيئا فى «بروكلمان» فلما اعتذرت بأننى لا أعرف الألمانية هب واقفا، ودار حول مكتبه، وذهب بى إلى مكتبة القسم، وتناول بروكلمان، وراجع معى «النقطة» كلمة كلمة، ثم قال لى بحسم وهو يودعنى : لست محتاجا إلى تعلم الألمانية لتفهم هذا القدر من بروكلمان (وكان كثيرا من المادة المطلوبة كلمات عربية بالفعل كتبت بحروف لاتينية !). وكنت أحس أنه راض – فى صمت – عن مثابرتى، ودقة مواعيدى، وأدائى واجباتى. وكان يطرى قراءتى بالعربية إذا طلب إلىَّ أن أقرأ جهرة

بين زملائى حين كان يترجم لنا كتاب «البخلاء»، وكان إطراؤه يتجه بصفة خاصة إلى صحة مخارج الحروف لدىَّ.

تقدمت إلى الأستاذ بالفصل الذى طلبه فرضى عنه، وزاد فطلب - والقوانين تبيح ذلك - إلى مجلس الجامعة أن يجيز لى الانتقال بهذا البحث نفسه إلى درجة الدكتوراه، دون ضرورة للحصول على الماجستير. وقد ظفرت بهذا كما ظفر به زملاء آخرون. ولم يكن يعنى هذا أن الأستاذ بهر بالفصل الذى كتبته، ولكننى أعتقد- كذلك-أنه كان مطمئنا إلى عملى، ومستواى فى العربية، وراضيا عن الجهد الذى بذلته فى تعلم الإنجليزية. وحين زف إلىَّ هذه البشرى دعانى للتحدث عن موضوع بحثى أمام زملائى فى «حلقة البحث»، وكانت تعقد فى القسم كل أسبوعين. وقد أعددت مجموعة من الملاحظات فى موضوع «الحركة النسائية فى مصر وآثارها الاجتماعية والأدبية»، وجزت بتحدثى تلك الليلة إلى جمع علمى باللغة الإنجليزية حاجز الخوف والخجل. وأذكر أننى عدت إلى البيت من تلك الأمسية بمزيج من مشاعر السعادة والإحباط، فقد سعدت أن تحدثت وفهمت الأسئلة واستطعت الإجابة عنها، ولكن شعورى

بأن بعض الإجابات كان من الممكن أن تؤدى على نحو أحسن ضايقني، كما أنني لم أكن متأكدا تماما من أن كلامى وقع من الأستاذ-الذى كان يجلس صامتا-موقع الرضا. وقد أنعش البرد، وسقوط المطر علىَّ بشدة- خلال العودة-روحى، فغلب شعورى بالانتشاء على شعورى بالخيبة، وتأكد لدى أننى أكن لأستاذى حبا واحتراما، وأدركت-حين نظرت إلى الخلف-أنه قدم لى خدمات كثيرة : شجعنى حين كنت لا أستطيع أن أدير معه أى حوار، وصبر كثيرا علىَّ، ولم يؤذ شعورى مرة واحدة.

وحين كان العام الدراسي على وشك الانتهاء تلقيت خبرا غريبا غمني، فقد علمت أن الأستاذ «سارجنت» ترك لندن إلى كمبردج. وأحزننى جدا أن يتركنى الأستاذ، وأحزننى أكثر أن أعلم بذلك من الصحف لا منه. كنت قد تعلقت به، وكانت صدمتى برحيله عن لندن كبيرة، لذا فإننى لم أستفد كثيرا من الإشراف الذى وفره لى القسم فى المدة الباقية، وحتى حصولى على الدكتوراه. ومرت شهور الصيف راكدة، ولم يعوض صدمتى إلا لقائى شبه اليومى مع السعيد بدوى. كنت ألقاه عصر كل يوم فى منتصف المسافة بين بيتى وبيته أمام دار البلدية، وأقضى وقتا جميلا فى صحبته.

وفى تلك الفترة تعرفت على مصطفى ناصف. وكان قد أتى لتدريس اللغة العربية، منتدبا من عين شمس، ومع الوقت وانتقاله للعيش فى شمال لندن، أصبحنا -أنا وهو والسعيد- نلتقى كثيرا. كان يهبط من «مازويل هل»، وينضم إلينا فى مجلسنا أمام مبنى البلدية، ثم نذهب إلى مكان عام قريب فنقضى وقتا طويلا. وقد بهرنى مصطفى ناصف بأفكاره الجديدة حول تناول الأدب، وثورته على ركود الدراسات الأدبية فى بلدنا. كان عنيفا، وساخرا، وحساسا، وصاحب فكر عميق. وقد راقت لى صحبته إلى أقصى حد، وكان له أثر فى حياتى خلال إقامتى فى لندن، وبعد عودتى إلى أرض الوطن. وكانت فكرته المحورية عن الأدب تترسخ حول اعتقاده فى فساد المنهج القائم فى دراسة الأدب العربى، الذى يعتمد على الاحتفال بظروف النص التاريخية والسياسية والاجتماعية على حساب النص نفسه، أو يحتفى بأثر المؤلف فى النص بدل العناية بالتحليل اللغوى.

كانت تلك الفترة أخصب فترة قضيتها فى لندن. خف ضغط العمل علىَّ نسبيا فأصبحت أتحرك داخل لندن وخارجها،

وأصبحت قادرا على الاستفادة بما تقدمه الحياة الثقافية. كنت عادة أقضى الصباح فى حضور المحاضرات والعمل فى المكتبة، وأتناول الغداء فى المدينة، مع السعيد بدوى كما أسلفت، أو مع مصطفى ناصف بعد أن تعرفت عليه. وقد تعرفت فى هذه الفترة كذلك على عبد الحميد صبره، وهو أستاذ مصرى متخصص فى تاريخ العلوم فى العصر الوسيط. كان نموذجا رفيعا للسلوك العلمى، وقد طابت لى صحبته، واستفدت منه كثيرا. صحبته مرة بالقطار إلى أكسفورد فأفاض على من علمه فى رحلتى الذهاب والعودة، وعرفنى فى أكسفورد بمصطفى بدوى. كان مهتما جدا بالحسن بن الهيثم وكتابه «البصريات». وقد رحل بعد عودتى من البعثة إلى الولايات المتحدة، ويشغل الآن «كرسيا» فى جامعة هارفارد، وينشر كتاب «البصريات» عن طريق «مجلس الفنون» فى الكويت.

وكان المساء–فى تلك الفترة–ملكى وملك أسرتى، نقضيه بجوار التليفزيون (وكنا قد اشترينا جهازا قديما بخمسة جنيهات من تاجر فى حى «فنسبرى بارك») وحْدنا، أو مع أسرة أصحاب منزلنا القديم، أو نذهب لزيارة السعيد بدوى، أو للسينما أو المسرح، وقد نخرج لجوله حرة واسعة إذا اعتدل الطقس.

كنت سعيدا بالعمل وبالترويح، وكنت أحس أن ذهنى يتفتح بسرعة، وأن معالم «بحثى» تتحدد أمام عينى، وأن نافذة الأدب الإنجليزى «المواربة» تنفتح. كنت أتذوق طعم الحياة ببطء، وأتشرب ما حولى على مهل، وتحددت أحاسيسى نحو الطعام، والموسيقى، والطقس، وأصبحت مولعا بتأمل الطبيعَة فى شكلها غير المعبّد فى «هامستيد هيث» وفى شكلها الصناعى الدقيق فى حديقة النباتات «كيوجاردنز».

وفى خلال ذلك كله كنت أحلم بالعودة إلى بلدى لأنضم إلى هيئة التدريس فى دار العلوم. لقد قرأت كثيرا، وفكرت كثيرا، ولكننى لم أكتب إلا أقل القليل. والواقع أننى لم أكتب شيئا بعد المقالات اليسيرة التى كنت أنشرها فى مجلة اتحاد دار العلوم، والقصائد القليلة التى أشرت إليها، ثم المحاولة التى لم تر النور فى رسالة الماجستير.

وكان عامى الخامس والأخير فى لندن مليئا. كان عام تحرير الرسالة (ولم أكن قد حررت منها سوى ما يمكن أن أسميه بعض المسودات، ثم الفصل الذى طلبه الأستاذ «سارجنت»). وكانت عادتى فى الكتابة أن أحرر وأمحو مرات عديدة قبل أن

أستقر على «المسودة» الأولى، ولاتزال هذه عادتى حتى الآن. وقد أعارتنى صاحبة منزلنا القديم آلة كاتبة، وعلمتنى مبادئ الكتابة عليها. فكنت أحصل على نسخة مما أكتب عليها من مسودات (وكنت أستخدم إصبعا واحدة فى الكتابة، ولما لم أوال التمرين بعد عودتى إلى الوطن فقد نسيت كل شيء!).

واستمر الإشراف علىَّ متعثرا، أو قل بقيت بدون إشراف فعلى. ومرة لقيت الأستاذ «سارجنت» بالصدفة فى مكتبة«معهد اللغات الشرقية» (وكان قادما من كمبردج لسحابة يوم) فشكوت له سوء الحال فطيب خاطرى، وعبر لى عن حسن ظنه بمجهودى، ودعانى لإلقاء حديث فى «حلقة البحث» التى تعقد فى «مركز الشرق الأوسط» فى كمبردج فلبيت فرحا، وكانت مناسبة لقيت فيها الزملاء، وكسرت حاجز الركود النسبى الذى أحس به فى موضوع الإشراف.

قضيت حوالى سبعة شهور (حتى مارس ١٩٦٥) أعد مسودات الرسالة. كنت أخصص الصباح للكتابة، وبعد الظهر لمراجعة الملاحظات، وقراءة بعض المراجع الإضافية، فى حين كان المساء للترويح. ولما كان بيتنا فى «أيفى جاردنز» ضيقا

فقد عرضت عليَّ والدة صاحبة منزلنا القديم أن أعمل فترة الصباح فى صالون منزلها المشمس الواقع فى شارع «سيسل رود» على بعد خمس دقائق من منزلنا. كان المنزل يخلومن كل أحد فترة الصباح-فالكل يخرج للعمل-وقدأعطتنى ربة البيت مفتاحا خاصا للباب الخارجي، أما باب الصالون ذاته فكان يترك مفتوحا، وكنت أصل حوالى التاسعة، وأعمل دون انقطاع حتى الواحدة (فيما عدا يومى السبت والأحد). وكان يحتل ركن الصالون جهاز اصطوانات قديم خاص بإحدى بناتها، وتجاوره مكتبة اصطوانات عامرة، فكنت أعمل دائما على صوت الموسيقى المنخفض، وكانت « السمفونية الخامسة» لبيتهوفن إحدى «اسطواناتى المفضلة»، وكانت افتتاحيتها تمثل لى طلقات المدافع، وصوت الرعد، وهدير المياه، ومشاعرى المكبوتة.

هكذا انقضت أشهر الخريف والشتاء، أعمل فى الشمس المشرقة على نغمات الموسيقى التى جاد بها عليَّ كرم السيدة «رابا»، ومع حلول الربيع، وتفتح الدنيا، وصحوة المشاعر، وتفجر الحياة فى الصخور، أكملت مسودات الرسالة، وأصبحت

لدىَّ نسخة كاملة من عمل يدى على الآلة الكاتبة صالحة للعرض على المشرف. وكنت قد عرضت عليه جزئيات هذه المسودة فصلا فصلا فأجرى بعض الإصلاحات، وطلب رؤية المسودة الأخيرة مجتمعة. وحين حملتها إليه استبقانى، وقلبها يمنة ويسرة، وحدثنى قليلا، وأطرق كثيرا، وسمح بالطباعة، وطلب أن أحمل إليه نسخة مطبوعة قبل التجليد (وكان معنى هذا لدىَّ أنه أبقى موافقته النهائية معلقة).

بقى على انتهاء العام الدراسى ثلاثة أشهر، ودخلت–مع طبع الرسالة–مرة أخرى فى سباق مع الزمن. كانت تتولى الطباعة لى سيدة فى جنوب لندن. كنت قد حصلت على رقم تليفونها وحادثتها فدعتنى إلى مقابلتها مع نسخة الرسالة. وقد طلبت إليها أن تحدد لى جدولا زمنيا لإنجاز الطباعة فلم تعد بشىء، ثم أذهلتنى أنها أنجزت لى فصلين فى أسبوع واحد. وظننت أن الأمور ستجرى على هذا «المعدل»، ولكن الأسبوع الثانى لم يأت بأى شىء، وتبينت أن ما حدث فى الأسبوع الأول كان نوعا من «الربط». وكان علىَّ أن أقطع إليها الطريق من شمال لندن إلى جنوبه مرات لا تحصى.

كانت الرحلة وسط الخضرة الغامرة جميلة جدا، وكانت صحوة الحنين إلى الوطن تجتاحنى اجتياحا، وكنت أفكر فى مستقبلى بعد الحصول على الدكتوراه فأراه رائعا ! وكنت أنتشى وأنا أرى الرسالة تتشكل أمام عينى فى نسخة نظيفة تكاد تخلو من الأخطاء. وحين حملتها إلى المشرف فى صورتها النهائية كنت وجلا ومضطربا. كنت أخشى أن يحدث فيها من التغييرات ما يضطرنى إلى أن أبدأ رحلة، «الذهاب والإياب» من جديد، وكنت أحسن بقرب انقضاء العام الدراسى، وأعلم أن الأمر إما أن يقضى فى يوم من أيام يونيو أو يؤجل إلى أكتوبر. وقد استقبلنى المشرف، وأعاد تقليب الرسالة، ثم دفعها إلىَّ دون أدنى تعديل، وطلب إلىَّ أن آخذها إلى التجليد، ثم إلى إدارة الجامعة. وقد فعل هذا بنبرة محايدة لا تشى بشىء على الإطلاق. قضت الرسالة فى التجليد أسبوعا وخرجت بعده زرقاء الإهاب، جميلة الشكل، قد خط عليها اسمى واسم جامعة لندن باللون الذهبى. ويوم حملت العدد المطلوب من نسخها، لأسلمه إلى إدارة الجامعة، لقينى مصطفى ناصف فى اتحاد الجامعة فأمسك بنسخة وأجال الطرف فيها بسرعة، ومط شفتيه غير مبال وقال : ألا تخشى أن

تقول عن ناقدة مشهورة : «ما لمتخصصة فى الأدب العربى وللنقد اليونانى»؟ ولم أفهم بالضبط ما يعنيه، ولكننى بعد أكثر من عشر سنوات من ذلك التاريخ قدمت الرسالة إلى هيئة علمية للنشر فأحالتها إلى هذه الناقدة للتحكيم، فقالت فيها ماقاله مالك فى الخمر، وتفادت (بالطبع) الإشارة إلى المواضع التى تناولتها فيها فى الرسالة!

دفعت بنسخ الرسالة إلى إدارة الجامعة فانزاح عن كاهلى العبء وقضيت أياما جميلة ساد فيها إحساس بالخلاص، ولكن بعد حوالى أسبوع بدأت أعانى من مشكلات الانتظار والترقب. وكنت لا أعرف كيف أستغل هذا الوقت. كنت أقرأ قليلا، وأراجع نسختى، وأفترض الأسئلة، وأعد الرد عليها . وكنت أتجول فى الحى، وفى لندن كلها، بلب شارد،وأصحب «مى» إلى حديقة الحى «بريورى بارك»، وأتحدث إليها-دون أن أنتظر إجابتها- عن الحاضر والمستقبل. كانت فى عامها الثالث، تتحدث الإنجليزية «بطلاقة لسان»، وقد أفردنا لها حجرة تنام فيها، وفى الصباح كانت تلتقط الصحف الموضوعة من تحت الباب، وتسرع إلى حجرتنا صائحة : «مجلتك يابابا».

وأخيرا وصل خطاب الجامعة يحدد لى موعدا للامتحان (لعله١٨يونيو ١٩٦٥!). وقبيل الموعد أصبت بنوبة انفلونزا ثقيلة، وما حل اليوم حتى تمكنت منى فمشيت إلى الكلية مثقل الذهن أجاهد أوجاعها إلى أقصى حد. أخذت طريقى إلى «أتوبيس ٣٣٣» فى السابعة والنصف صباحا، ووصلت محطة مترو الأنفاق «فنسبرى بارك» فى الثامنة، وكان الامتحان فى التاسعة. كنت أرتدى حلة رمادية هى أفضل ماعندى، «فصَّلتها» عند «جون كولبير»، ودفعت ثمنا لذلك ١٧ جنيها نقدا وعدا. وصلت الكلية حوالى الثامنة والنصف فلم أجد سوى الحراس، وعدد قليل من الموظفين. وجلست فى الردهة الداخلية متأبطا نسختى وبعض أوراق الكتابة. كنت أبعد ما أكون عن حالة الصفاء الذهنى التى أمَّلت أن أكون عليها حين يأتى ذلك اليوم الفريد فى حياتى.

قبيل التاسعة اضطربت المدرسة-كما كنا نسميها- بالأحياء، وفى التاسعة إلا خمس دقائق رأيت الأستاذ سارجنت بشعره الرمادى الملقى على جانب جبهته، وبجسمه الضخم النشط، وحلته الداكنة النظيفة التى لا يكاد يتغير لونها، يدلف من

الباب مسرعا يكاد يقتحمه، فحَّيانى على عجل، وأخذ طريقه إلى المصعد. كان يحمل فى يده حقيبة بأذنين لمحت بها شيئا كأنه نسخة من «رسالتى» ! وفى التاسعة صعدت إلى الطابق الثانى مقر القسم، وحييت السكرتيرة فأومأت إلىَّ أن أطلب الإذن بالدخول إلى غرفة المشرف، «فَهُمَا فى انتظارك».

مضيت فى الدهليز الهادئ النظيف الذى قطعته من قبل عشرات المرات، ونقرت على الباب فأذن لى بالدخول، وهناك كان يجلس الأستاذ «سارجنت» وبجواره المشرف. وقد دعيت إلى الجلوس على كرسى مفرد فى مواجهتهما، وكان يفصل بيننا مكتب عريض.

بدأنى الأستاذ «سارجنت» قائلا : «أقول لك صباح الخير بصفة رسمية هذه المرة». كان شديد التحفظ على نحو لم أعهده فيه من قبل، مع أنه –للحق– لم يكن قط «شديد»الدفء أو «شديد» المرح، أو «ظاهر» البشاشة. ثم وجه إلىَّ حوالى مائة سؤال، بعضها قصير، وبعضها طويل. بعضها متعلق «بوجهة نظر» وبعضها متعلق «بحقيقة» تاريخية أو «نصية». كان سريعا، وحاسما، وينتظر جوابا لكل سؤال. وأجبت إجابات قصيرة

أحيانا، ومتوسطة الطول أحيانا، وأحيانا كنت أقول : «لا أدرى».
ووجدت نفسى فى أقصى حالات «التنبه» على الرغم من أوجاع الانفلونزا. التزمت الصدق فى كل الأحوال، فقد كنت-ومازلت- أكره التمويه، والادعاء، وتملق مشاعر الآخرين. وحرصت على أن يكون لكلامى معنى وألا أبدو بحالة غير التى أنا عليها. كنت أختار كلماتى على مهل، ولا أجارى الأستاذ في نشاطه الجم، وسرعته الخاطفة. وحين انتهت الأسئلة، وآذن حديثه بالانتهاء قال لى إنه مرتاح للمستوى الذى بَلَغتُه فى اللغة الإنجليزية- كتابة ومحادثة-وإن كان لا يعلم-بالطبع-قدر المساعدة التى تلقيتها من الغير فى الجانب الكتابى، فبينت له أن «الجسم الأساسى» فى هذه الرسالة مكتوب بانجليزيتى، وحددت له حجم التصحيحات التى أجرتها مدرستى على وجه الدقة. وعندئذ أزاح نظارته واستراح إلى الوراء، وأسلمنى إلى المشرف الذى لم يرهقنى بشىء : تحدث حديثا عاما ثم وجه إلى سؤالا أو سؤالين. وفى النهاية قال لى الأستاذ «سارجنت» : تستطيع أن تنصرف الآن.

تركت غرفة الامتحان-كما دخلتها-متأرجحا بين اليأس والأمل. كان عبد الحكيم حسان قد قال لى-وقد مر بالتجربة

ذاتها منذ أشهر-إن أستاذته «لامبتون» قالت له وهو خارج من غرفة الامتحان : مبروك. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث لى، وقد أوقعنى ذلك-وأنا القلق بطبيعتى-فى مزيد من الحيرة، وقد هبطت الدرج إلى الردهة وجلست متهالكا على الأريكة الخشبية التى كنت أجلس عليها فى الصباح. هجمت علىَّ آلام الانفلونزا ومخاوف من الذاكرة القريبة، فقد استعدت شريط الامتحان، ووقفت عند عدة أسئلة، ظننت أننى لم أكن موفقا فى الإجابة عنها. بقيت فترة طويلة ثابتا فى مكانى، ومر الأستاذ «سارجنت» فحيَّانى مرة أخرى تحية «محايدة». ثم جاءت زميلة مصرية كانت تدرس التاريخ مع الأستاذ «لويس»، ولما علمت أننى خرجت لتوى من لجنة الامتحان صرخت متأثرة، وأعلنت أنها تحسدنى على ما أنا فيه!

وعدت إلى البيت فاستقبلتنى «مى» مهللة كعادتها، ورويت لزوجتى صورة ماجرى، وتناولت غداء مبكرا، ونمت نوما طويلا، وحين صحوت فى المساء أحسست أننى أولد من جديد. كانت هذه المرة الأولى فى حياتى-وقد بلغت الثالثة والثلاثين-التى كنت فيها متحررا من الواجبات الدراسية. أستطيع الآن أن أذهب إلى السينما أو المسرح، أو أخرج إلى الحدائق أو الشوارع،

أو لا أفعل شيئا على الإطلاق. وكان السعيد بدوى يستعد بدوره للامتحان فى قسم «اللغويات». ولا أتذكر ما فعلته بالضبط فى تلك الليلة، ولكنى أتذكر الإحساس بالعبء الثقيل يلقى عن كاهلى.

نهضنا فى جمع أمتعتنا وكانت قليلة حقا : ملابسنا القليلة وملابس «مى»-ومعظمها هدايا من الأصدقاء-وسرير جميل لمى (باعته زوجتى بعد ذلك بسنين إلى «بائع الروبابيكيا» فى شارع السلحدار بجنيه مصرى واحد، وندمت عليه بعد ذلك ندما متصلا) وعربة مى (وقد نشأ عليها أمين وبقيت فى حوزتنا إلى الآن) ومجموعة «لعب» مى ومجموعة كتب. ولم يكن لدينا مدخرات مالية تذكر. وقد تمكنا من شراء سخان صغير، وغسالة، وبوتاجاز بلغ سعرها كلها حوالى ١٥٠ جنيها.

وكنت قد بدأت– فى العمق–أنتظر النتيجة، ولكن الانشغال بترتيبات السفر أزال عنى شبح الانتظار. وفى يوم ٢٨ يوليو ١٩٦٥ وصلتنى النتيجة فطرت بها فرحا إلى مكتب البعثات. وأذكر أن الوحيد الذى شاركنى الفرحة كان «مستر فيولنج»، وأما الآخرون فلم يبالوا. وكل ما خرجت به من هناك

خطاب إلى «توماس كوك» بأن يتولى «تسفيرى» وأسرتى على حساب المكتب بطريق البحر.

وكان السعيد بدوى قد اجتاز امتحانه، وبدأنا الاستعداد معاً لرحلة العودة. كان السعيد - ولايزال - عمليا، خبيرا بكل شيء، وقادرا على إجراء الاتصالات، وكان كذلك-ولا يزال-دافئ العواطف، ومحبا للمساعدة، وقادرا عليها. وقد قام بكل الإجراءات المعقدة لنا معا، وكنت أتمتع «بصحبته» فحسب. وأذكر أننا ذهبنا بأمتعتنا فى عربة نقل صغيرة قبل السفر بيومين إلى «رصيف الملك جورج الخامس»، كما أذكر أننى وأسرتى تركنا بيتنا قبل السفر بيوم، وقضينا الليلة فى «سيسل بارك»، منزل صاحبة منزلنا القديم، وذلك حتى لانضطر إلى دفع أسبوع إيجار لن نقيمه فى شقتنا. كانت صاحبة المنزل قد سافرت مع عائلتها إلى قبرص قبل ذلك بأسبوع، وكان عطفا بالغا علينا منها أن تترك لنا «المفتاح».

وصلنا صباح السفر بتاكسى إلى محطة «الأتوبيس» الذى كان سيقلنا إلى الميناء، وجاء السعيد وأسرته التى كانت تتكون منهما ومن «نادية» و «هانى»، وجاء «مستر فيولنج» لوداعنا، وأتذكر أن الاستعدادات للسفر قضت على كل نقودى فاقترضت

خمسة جنيهات من السعيد، ولكن إفلاسى لم ينقص من سعادتى شيئا. كنت أعلم أن الرحلة بالسفينة ضرب من «العيش فى الجنة»، وأن الإنسان يمكن أن يستغنى فيها عن النقود تماما. وكنت–ومازلت–لا أعرف قدر المال، ولا أسعد بامتلاكه، ولا آسى على نقصانه. وقد يرى البعض هذا نقصا فى تكوين شخصيتى، ولكننى أصف بذلك واقعا لا أملك تفسيره، فضلا عن تغييره.

قضينا فى البحر أحد عشر يوما هى النعيم بعينه. ومررنا على «جنوا» «ونابولى» «وجبل طارق». وحين خرجنا إلى اليابسة فى جبل طارق تنسمت عبير المجد الغارب، ولم أدر أننى سأزور الأندلس بعد ذلك بسنوات حين قضيت سنة ١٩٧٢فى الساحل الأسبانى الجنوبى أجمل عطلة فى حياتى.

كانت زوجتى حاملا فى شهورها الأولى، وقد رزقنا بأمين بعد ذلك فى فبراير ١٩٦٦. أما وصولنا إلى أرض الوطن فقد كان فى ٢٤ أغسطس١٩٦٥. كان صباحا حارا فى بورسعيد اشتد فيه الزحام وهجم الذباب. وفى غمرة سعادتنا بالعودة إلى تراب الوطن وأحضان الأهل، صرخت مى–ولم يكن لها بالذباب عهد ولم تكن تتكلم العربية–شاكية من أن «طائرا صغيرا قد صدم وجهها» !.

* * *

دار العلوم مرة ثانية

كان عليَّ - بعد العودة - أن أصارع فى جبهات عدة؛ فزوجتى أصلا معينة للتدريس فى منطقة بورسعيد، وأنا لا أزال معيدا أتقاضى حوالى ٣٠جنيها، وليس لدينا سكن خاص. وقد بدأنا مع مرور الأيام والأسابيع نستشعر صعوبة الموقف، وكنا نقيم مع إبراهيم الترزى الذى لم يضق بنا قط. ذهبت زوجتى للإقامة فى بورسعيد أياما فى وضع تعلم هى قبل غيرها أنه لا يمكن أن يستمر، وعلمنا أن نقلها إلى القاهرة فى عداد المستحيل! وكان هذا الوضع-الذى يشتت شمل الأسرة على هذا النحو- عاديا جدا فى نظر وزارة التربية والتعليم، فتقدمت زوجتى باستقالتها، وأبرمت عقدا مع المدرسة الإنجليزية التى كانت تعمل بها قبل السفر، والتى لاتزال تعمل بها حتى الآن.

وكانت أزمة السكن قد بدأت تستحكم، ولكن الحظ يسر لنا سكنا فى شارع السلحدار رقم ١٨فى منطقة روكسى، وقد قلت

قبلا إنه يقع على المنعطف من بيت العقاد. ولم يكن لدينا-حين انتقلنا إليه-سوى سرير «مى» وسرير وصوان على سبيل «الاستعارة» من بيت إبراهيم الترزى. ثم اشترينا مائدة صغيرة جدا وعددا قليلا من الكراسى من ميدان الجامع بمصر الجديدة، ونسقنا الكتب فى المكان «البلقع» فبدا المنظر مقبولا.

استغرقت إجراءات تعيينى مدرسا فى الكلية وقتا أطول مما قدرت، وبعد التعيين-وكان فى قسم البلاغة والنقد الأدبى والأدب المقارن، وهو القسم الذى خرجت فى بعثته إلى لندن ولا أزال أعمل به إلى الآن-أصبح مرتبى دون الأربعين جنيها. وأذكر أننا دعينا على عجل ذات يوم لنحضر جلسة فى فرع «الاتحاد الاشتراكى» فى الكلية، واحتشد الأساتذة، وجاءهم مندوب زائغ البصر من قسم قصر النيل، وجلس رئيس حرس الكلية يسجل الاجتماع، وتبارى الأساتذة فى الكلام، ولم يرق لى ذلك قط. وفى اجتماع تال لما كان يسمى بالمكتب التنفيذى لاحظت أن بعض المعيدين يغلظ القول للأساتذة وينادى-فى حسم مسألة من المسائل-بالتصويت كما تقضى قواعد «الديمقراطية». وحين أجرى التصويت رجحت الكفة التى تكتل فيها المعيدون فساد الهرج، وامتزجت «السياسة بالعلم» على نحو سوقى وخطر.

انتظم العام الدراسى ١٩٦٥-١٩٦٦ وكلفت بالتدريس فى مادتى «النقد الأدبى الحديث» و «الأدب المقارن» لطلاب الليسانس و الدراسات العليا. وبدأت العمل من فورى، وبالطريقة التى أراها صحيحة. وقد لاحظت أن بعض القائمين على أمر «النحو» فى دار العلوم-بعد الجيل الرائع الذى تتلمذنا عليه، من أمثال أحمد زكى صفوت، وعلى النجدى، وعلى السباعى، وعباس حسن وعطية الصوالحى-يدرس النحو بالعامية، كما لاحظت أن الطلاب يقاومون الصيغة الصحيحة للدرس الجامعى، ويصرون على وجود «الكتاب الجامعى أو «المذكرة» ولكننى لم أعر ذلك اهتماما. وذات يوم استدعانى وكيل الكلية، وكان فى الوقت ذاته مقررا للمكتب التنفيذى، وسألنى عن السبب فى أننى لا أزود الطلاب بمذكرات مكتوبة فى الموضوع الدراسى، فأجبته بأننى لا أعتقد فى ملاءمة ذلك من الناحية العلمية، فقال لى إن إخوانى جميعا يفعلون ذلك، فقلت له لعل لهم فى ذلك رأيا يخالف رأيى، فطلب إلى أن أعيد التفكير فى الموضوع، فسألته إن كان يتحدث إلى بصفته السياسية أو العلمية، فأجابنى بأنه يتحدث بصفته السياسية، فلما قلت له إن هذه مسألة أكاديمية بحتة، ولا علاقة لها بالسياسة، لم يوافقنى، وأكد لى صلة الأمرين! فقلت له : وإذن

مـا دور مـجـلس الـقسـم ومـجـلس الـكـلـيـة إذا كـان «الاتـحـاد الاشتراكى» سيتدخل فى هذه النواحى ؟ فقال لى إنه لا تعارض بين الأمرين، ومضى يشرح لى فى إسهاب مابدا غامضا علىّ. كان هادئا، وبدا شبه معتذر، على حين كانت حدتى بادية. وقد ذكرنى بأنه فى موضع الأستاذية منى، وهذا أمر لم أكن أنكره، وأنـه يـقـدر أنـنـى وقـد عـدت حـديـثـا من أوروبـا -لابد أن أشعر بالتباين بين أحوالنا وأحوالهم. واستطرد إلى شرح التغيرات التى حدثت فى المجتمع المصرى، وصعوبة الحياة المادية، وفقدان الدوافع إلى «التجويد » العلمى. وبعد الشرح قلت له : لنفترض أن تفكيرى لم يهدنى إلى قبول وجهة نظرك، ماذا يكون عليه الحال؟ فأجاب : لا شىء إلا الأسى لحالة الطلاب- كما يراها من وجهة نظره-وإلا الخوف علىَّ بأن أظهر بمظهر المخالف للتيار العام.

خرجت من هذه المقابلة مبلبل الخاطر، وبقيت أياما لا أدرى ماذا أفعل. وخلال ذلك طلب منى «رائد الشباب»-وهو منصب فى الاتحاد الاشتراكى أيضا، وكان من أساتذتى - أن أحضر نيابة عنه جلسة فى مبنى الإتحاد الاشتراكى فقبلت - من منطلق الخجل لا أكثر - وكان اجتماعا حافلا سمعنا فيه

الأحاديث المعروفة التى كانت تتردد فى اجتماعات الطلبة العرب فى لندن. وفى طريق العودة سألت من كان معى عما إذا كان من الضرورى أن أعد مذكرات للطلاب فقال ببساطة أذهلتنى : بالطبع، وإلا فكيف يحصّلون المادة الدراسية؟ أحزنتنى إجابته، ولكنه كان صادقا مع نفسه. وقد أخذت بعد أيام أعد نقاط المذكرات فى المواد التى أقوم بتدريسها. ولا أزال أعتقد أن هذا كان «تنازلا» منّى ما كان يصح أن أفعله. لقد كان ما فعلته غير الصحيح: قبول الأمر الواقع المتدهور بدلا من التصدى له، ومحاولة العودة بالحياة الجامعية إلى معناها الصحيح، ولكننى– من جانب آخر – مدين لهذه المذكرات بكتبى جميعها؛ لقد نبتت جذور هذه الكتب من نقاط المحاضرات التى كنت أسجلها على الورق لتصبح – فى شكلها الموسع – مذكرات.

وجدت مع التدريس فى دار العلوم وقتا متسعا للقراءة والبحث. وقد ألقيت بموضوع الرسالة وراء ظهرى، واستقبلت النقد الحديث من بابه الواسع. وكنت سعيدا إذ أقرأ «بلغتين». ونمت صلتى بالسعيد بدوى، وتوثقت، وكان قد اتخذ مسكنا له فى أرض دجلة بالمعادى. كان مسكنه فى الدور الأرضى وله

حديقة واسعة فكنا نأتى من مصر الجديدة لقضاء الوقت لديه، ونتمتع بكرمه. وفى فبراير ١٩٦٦ -وكما أشرت- رزقنا بأمين، وقد أطلقنا عليه اسم خال زوجتى، وكان رجلا عظيما من رجال القضاء. كان محبا لنا، وكنا له محبين. وكان آية فى البساطة والتواضع. نراه فى بيت إبراهيم الترزى، ويأتى لزيارتنا قليلا، وبوصول أمين أحسسنا أن «عدد» العائلة قد اكتمل، وينبغى أن يتوقف عند هذا الحد. وكنت - ومازلت - أعتقد أن العائلة الصغيرة هى الوضع الملائم، ونجحنا فى الحد من العدد. والحمد لله.

وخلال الفترة الأولى من سنوات عملى فى دار العلوم تعرفت على ثلاثة طلاب - سيصبح لهم أثر فى حياتى - هم حامد طاهر وأحمد درويش ومحمد حماسة. كنت أدرس لهم الأدب المقارن فى السنة الثالثة، وكانوا -ضمن آخرين- يكونون جماعة الشعر فى الكلية، وكنت أشرف على نشاطها، فبدأت علاقتنا تنمو فى قاعات الدروس، وفى المجال الثقافى، وسرعان ما تطورت إلى معرفة وطيدة، ثم إلى صداقة حميمة. كان هؤلاء الطلاب الثلاثة أول طلاب دخلوا بيتى فى مصر الجديدة. كنت- ومازلت - أحبهم وأقدرهم، لا لأنهم شعراء - فأنا لا أدعى أننى

أحمل عبء حب الشعر، على كتفى - ولا لأنهم متميزون فى دراستهم، ولكن لأننى شعرت بالتجاوب الطبيعى بينى وبينهم. كنت أحن إلى أن يكون لى إخوة أصغر منى، وقد وجدت ذلك فيهم. ثم درست لهم فى السنة الرابعة. وأتوا - ثلاثتهم - فى مقدمة «الدفعة» فعينوا معيدين فى الكلية، وبقينا متلازمين. وكان السعيد بدوى قد ذهب معارا إلى السودان، فخلف ذلك فى نفسى فراغا كبيرا، فملأ هؤلاء الشبان النشيطون نسبيا - هذا الفراغ. كنا نقضى فى المدينة فترة ممتدة، ونتردد على المقاهى والمطاعم - حسب «الميزانية» - وكانت ضيقة - ثم نسير على الأقدام إلى ميدان التحرير أو إلى آخر المترو-وكان يمتد حتى كورنيش النيل-فأتركهم إلى مصر الجديدة. وقد أصبح هؤلاء أعضاء فى هيئة التدريس فى الكلية الآن؛ حماسة فى قسم النحو، وحامد فى قسم الفلسفة، وأحمد فى قسمى ذاته. وحين نجلس لنتذكر الأيام الخوالى يجاملنى هؤلاء الثلاثة بتعداد أوجه الفائدة الأدبية التى استفادوها منى طيلة سنوات صحبتنا، ولكننى-بالصدق كله-أعتقد أنها فائدة لا تقاس بالمتعة الروحية التى وفروها لى. لقد ساعدونى على التغلب على اجتياز

فـتـرة «إعـادة الـتـوطـين» بسلام، وذلك بـعد سـنـوات الـغـربـة عـن القاهرة.

فى أكتوبر ١٩٦٦نشر أول مقال لى. كان ذلك فى مجلة «المجلة»، وكان يرأس تحريرها يحيى حقى. وكنت قد ألقيت عدة محاضرات فى موضوع «المعجم الشعرى» على الطلاب، ثم أعدت صياغتها فى مقال متوسط الحجم. ذهبت لمقابلة يحيى حقى- وكنت أقرأ له بشغف، كما كنت مفتونا بالحنو البالغ الذى يشع من صوره الفوتوغرافية التى تنشر فى الصحف - فاستقبلنى استقبالا حسنا، وطلب إلىَّ أن أقرأ له فقرات من المقال، ولم أكد أتقدم فى القراءة حتى مدَّ لى يده مبتسما لتسلم المقال. لم يقل شيئا، ولكننى اعتبرت هذه الإشارة الصامتة إشارة القبول، وغنى عن القول أننى كنت سعيد جدا برؤية المقال منشورا، وبأن اسمى ظهر مقرونا بأسماء أعلام الكتاب. كان هذا أول مقال أتقاضى عنه أجرا، ولكنه لم يكن أول نشاط أدبى أتقاضى عنه أجرا؛ فقد طلب إلىَّ فاروق شوشة- قبل سفرى إلى لندن-أن أذيع بصوتى أشعارا لى من البرنامج الثانى، يعلق عليها محمد مندور، وأعطتنى الإذاعة عنها أجرا، كما أذعت بصوتى حديثا عن النقد

العربى الحديث من القسم العربى للإذاعة البريطانية أول إقامتى بلندن، ونقدت عنه أجرا. ولم يكن أجرى عن مقال «المعجم الشعرى» كبيرا، ولكننى لم أحفل بذلك قط، وقدرت ليحيى حقى لطفه وإنسانيته، وظهر لى فى «المجلة» مقالات أخرى سنتى ١٩٦٧، ١٩٦٨، وتكرر لقائى بيحيى حقى. ومرة طلب إلىَّ أن أزوره فى بيته، وكان يسكن فى روكسى قريبا جدا من منزلنا، فذهبت إلى زيارته ذات صباح، واستمتعت بحديثه وكرم ضيافته، ولقيته بعدها مرات فى بيت محمود شاكر.

توثقت علاقتى بعد عودتى من البعثة ببعض الأصدقاء القدامى، وانقطعت بالبعض الآخر. كان الكثير منهم قد نزح طلبا للرزق، ووجدت عادات بعضهم قد تغيرت، ونظر إلىَّ بعضهم متوجسا وكأنه رأى أننى مادمت عائدا من أوروبا فلابد أن أكون متكبرا، فاتخذ-بطريقة «أوتوماتيكية» موقفا دفاعيا منى. وقد حز فى نفسى موقف هذا النوع الأخير جدا، ولكننى لم ألح، ولم أفرض نفسى على أحد فى جميع الأحوال. جددت علاقتى بفاروق شوشة، وأبو المعاطى أبو النجا، وفوزى العنتيل، والحسانى عبد الله. كان فاروق شوشة كريما، فدعانى إلى ندوات أدبية فى الإذاعة، وأهدى إلى ديوانه الأول «إلى مسافرة»، وواظب على

زيارتى فى دار العلوم. كان متألقا كالعهد به، محبا لعمله إلى أقصى حد، مجاملا فى غير إسراف، عارفا بأقدار الناس، محبوبا من الجميع.

بدأت العمل بجد فى ترجمة كتاب «الصوت المنفرد»-وهو مقالات فى نقد القصة القصيرة بقلم الكاتب الأيرلندى فرانك أوكونور-وكنت أعمل فى الوقت ذاته فى نقاط متصلة بنقد الشعر. وكنت أذهب للتدريس ثلاثة أيام فى الأسبوع وأبقى فى منزلى بمصر الجديدة للعمل بقية الأسبوع. وفى أيام العمل المنزلى كنت أقسم اليوم إلى فترتين صباحية ومسائية : أجلس فى الصباح من التاسعة إلى الواحدة بعد الظهر، وأجلس فى المساء من الرابعة حتى التاسعة. وقد داومت على هذا النظام طيلة سنوات أربع. كانت فترة الصباح هى الفترة الخصبة؛ فالهدوء كامل، والبيت خال إلا من «أمين»-وكان يقضى معظم الوقت نائما - وجدّته لأمه، وهى سيدة صالحة هادئة لم أكن أحس بوجودها فى البيت. وفى بعض الفترات كان لأمين «مربية»، وفى فترات أخرى جاءت للإقامة معنا شقيقة لى.

كنت أعمل على مائدة الطعام، ولم أتخذ لنفسى «مكتبا» قط، ولا كان لى «غرفة مكتب» طيلة حياتى. كنت أحب أن أرى

مراجعى، ومذكراتى، وملاحظاتى وأوراقى جميعا على مرأى منى، وكنت كعادتى أسرف فى كتابة «المسودات» قبل أن أستقر على صورة الكلام النهائية. كانت الصياغة-ولا تزال- عندى ضربا من المعاناة، وكنت-ومازلت-أعتقد أن الفارق الحاسم بين عمل وعمل يكمن فى الصياغة. وبعد سنوات من العمل المضنى انتهيت-فى وقت واحد-من ترجمة كتاب «الصوت المنفرد» ومن كتابة «فى نقد الشعر»، وظهر كتاب «فى نقد الشعر» عن دار المعارف سنة ١٩٦٨، وكتاب «الصوت المنفرد» عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٦٩.

قضيت فى دار العلوم بعد عودتى من البعثة أربع سنوات حافلة بالعمل، ومهددة بضيق ذات اليد. وكنت سعيدا بعملى، ومتمتعا بأسرتى. لم أكن متمردا ولا مُصْلحا، ولكننى كنت مصرا على الاحتفاظ بحريتى، ومستعصيا على أن أصاغ فى إطار. وقد قرأت كثيرا فى النقد العربى الحديث فلم يرق لى منه إلا القليل. وحين ظهر مزيد من الكتب لمصطفى ناصف-وفى مقدمتها كتابه «دراسة الأدب العربى»-أدركت أن الفكرة التى كونتها عنه فى لندن كانت صحيحة تماما. وقد قرأت كل ماكتبه بتؤدة

وإعجاب، واقتربت منه من جديد. وكنت لا أملُ من ذكر اسمه وأعماله لمن أعمل معهم، ولكنى كنت ألقى منهم صدودا. كان البعض يعتقد أنه غامض، والبعض يعتقد أنه مشوش، والقلة تعتقد ما أعتقد. وعلى كل حال فقد استفدت منه كثيرا. كان لنا مجلس متنقل بتنقله على مقاهى مصر الجديدة، وكنا نتزاور فى البيوت قليلا. وكانت مشكلتى معه أنه قلق إلى حد لا يمكن معه الاحتفاظ به. يقبل عليك حتى تكاد تتصور أنه لن يبعد عنك، ويختفى حتى تكاد تظن أنك لن تعثر عليه بعد اليوم. هو عالم وفنان، ويحمل لنفسه اعتزازا شديدا بما لديه، يظهر فى شكل تواضع ممزوج بسخرية عميقة.

حين عاد السعيد بدوى من العمل فى السودان بعد ثلاث سنوات كنت أحزم أمتعتى معارا للعمل فى الجزائر، وهكذا لم يتح لى أن أتمتع بقربه طويلا. ولم تكن مسألة الخروج من الوطن، والدخول فى لعبة «الإعارة»، تخطر على بالى، ولكن الإعارة كانت قد وصلت بين أعضاء هيئة التديس إلى درجة الحمى المعدية كما كان التباين الصارخ بين الحالة المادية لمن أمضى فترة إعارة فى الخارج، والذى لم يفعل ذلك، أوضح من أن يستدل

عليه. وكنت-من ناحيتى-أعانى من ضغوط كثيرة : منها أننى لم أستطع «التأقلم» مع الأسلوب الذى كان يجرى عليه العمل فى قسمى قط، ومنها أننى كنت أعيش على مرتبى-وجزء من مرتب زوجتى-معيشة لايمكن أن توصف بأنها مريحة، ومنها أننى- والإنسان هو الإنسان- لم أكن أريد أن أحرم من «شىء» رأيت زملائى كبارا وصغارا «يتقاتلون» عليه. تاقت نفسى إلى أن «أجرِّب» الإعارة، تخلصا من الضغوط المادية والأدبية، وطلبا لوضع أفضل فى الناحيتين. وقد رشحت أولا للسودان، ولكن ظروفا مقلقة هناك حالت دون إتمام إعارتى إليه، ثم رشحت- بالاسم للجزائر- نتيجة لمساعٍ حميدة من الطاهر مكى-وكان يعمل هناك معارا من الكلية منذ عام.

قضينا مع السعيد بدوى «العائد» صيفا جميلا. وأعددنا أمرنا للسفر : حصلت زوجتى على إجازة من عملها، وأخرجت «مى» من مدرستها - وكانت فى المدرسة الإنجليزية-وفى عشية سفرنا - خريف ١٩٦٩ - تعرضت لأول أزمة صحية حقيقية فى حياتى، وعوض أن أكون فى المطار فى الصباح كنت أرقد فى مستشفى الطلبة بالجيزة. جاء الأساتذة والزملاء إلى

المستشفى مذعورين بعد أن ذهبوا لوداعى -بعضهم إلى بيتى فى مصر الجديدة وبعضهم إلى المطار- وبقيت متوعكا بين المستشفى والبيت ثلاثة أسابيع كنت قادرا بعدها على السفر. وقد نصحت أن أسافر أولا بمفردى، وذلك حتى أدبر سكنا لأسرتى. والواقع أنه لم تكن لدىَّ أدنى فكرة عن مثل هذه الترتيبات. لقد كنت مندفعا للسفر للأسباب التى ذكرتها، ولم أحسب حساب أى شىء آخر. ولما لم تكن زوجتى معى -وهى التى كانت تقوم عادة بحزم الحقائب- ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى أسافر فيها بالطائرة، فقد حملت حقيبة ملابس واحدة، وقصدت الجزائر فى أواخر نوفمبر ١٩٦٩.

* * *

الجزائر : صورة العالم الثالث

كان الوقت رمضان، ولكننى- «كنت أمر بفترة نقاهة من المرض-لم أكن صائما. جاء لوداعى فى البيت مصطفى ناصف، وصحبنى إلى المطار، كما جاء إلى المطار أحمد درويش ومحمد حماسة وحامد طاهر. دعينا إلى الطائرة الجزائرية-وكانت بالطبع فرنسية الصنع-وتعرفت فى المطار على أحمد فؤاد الأهوانى، وكان مسافرا للغرض ذاته. وبعد فترة من الطيران قدم الغداء فلم آكل خجلا من مرافقى. وقد هبطنا فى تونس بعد طيران مرهق، وهبطنا الجزائر بعد فترة طويلة.

وجدنا فى انتظارنا فى ساحة المطار الداخلية مندوبا عن وزارة التعليم تعرفت فيه على زميل من «زملاء فرقتى» فى دار العلوم. وقد انشرح صدرى لذلك، وأقبلت مندفعا لتحيته، ولكنه حيانى بفتور !. وكان الطاهر مكى-مع تلميذ من تلاميذه-فى انتظارى فى ساحة المطار الخارجية، كما كان أبو القاسم سعد

الـلـه، وهـو زمـيل من زمـلاء دار العـلوم. جـاء لانـتظـارى بـحكم وظيفته، وكان يعمل نائبا لعميد كلية الآداب.

أخـذتـنـا عـربـة حكومـيـة مـتوسطـة الـحـجم إلـى الـمـديـنـة، وصحبنا مندوب وزارة التعليم. وبعد رحلة مرهقة فى الظلام وصلنا إلى بيت أعدوه للضيافة، وذلك حتى يوفر لنا السكن الدائم!. كان قريبا من فنادق الدرجة الثالثة، وبعيدا عنها فى الـوقت ذاتـه. لكل شـخص حـجرة فـيـهـا أثـاث قـلـيل، ولـهـا حـمـام خاص، ولكن لا أحد يعتنى بها على الإطلاق. وقد اتضح فى الصباح أن الإقامة فيها نظير أجر، ولكن الذى أزعجنى ذلك «الإهمال» الإنسانى ؛ فلا أحد يطرق عليك الباب، ولا يسألك إن كنت تحتاج شيئا.

فـى الـلـيل تـنـاولـنـا عشـاءنـا فـى مـطـعـم نـظيـف بـدعوة من الطـاهـر مكى، وفـى الصـبـاح جـاء وصـحـبـنـا إلـى وزارة الـتـعليم. ومررنا-بالطبع-بالمسئول الذى كان فى انتظارنا فى المطار فلقينا بفتور، وسألته عن الفترة اللازمة لتوفير مسكن لى حتى أتمكن من إحضار أسرتى فلم يعد بشىء، وقال إن الأمور «تنفرج بالتدريج»! ولما لم أكن متعودا على هذا «الفتور» فى حياتى فقد

أحسست أن البداية ليست مشجعة. وفى موعد الإفطار تناولنا الطعام فى مطعم متوسط الحال، وذهبنا إلى مكان نظيف فى «ساحة الأمير عبد القادر» لتناول الشاى. تسامرنا وتذاكرنا الحال، واستطلعنا خبرات من سبقنا، ومنهم الطاهر مكى الذى بدا متفائلا. وحوالى التاسعة أقفر المكان، وحين سرنا عائدين كانت المدينة شبه نائمة، مع أن الجو الخريفى كان جميلا، والوقت رمضان!

كان قد لفت نظرى فى الصباح - ونحن فى طريقنا إلى الوزارة بالتاكسى-جمال المدينة الساحر وتدرج وضع البيوت، والخضرة الطاغية. كان الطريق يتعرج صعودا وهبوطا، وكانت المرة الأولى التى أهبط فيها مدينة جبلية. وكانت المدينة نظيفة، متناسقة المبانى، قد طليت بيوتها جميعا باللون الأبيض، فكانت بحق «عاصمة بيضاء». ولاحظت أن الناس يتحدثون لغة مختلطة لم أفهم منها شيئا. وقد ظننت فى البداية أنها الفرنسية، فلما أخبرنى الطاهر مكى أنها «العربية الجزائرية» هالنى الأمر.

فى صباح ليلتنا الثانية مر الطاهر مكى-وكان يسكن فى فندق قريب- وصحبنى إلى الجامعة. سرنا تحت المطر، فى

محيط جميل، وصعدنا الشارع التجارى الرئيسى : «ديدوش مراد»، وانعطفنا يمينا فكنا فى الجامعة. دخلنا إلى مكتب العميد فتحدث حديثا هو خليط من الفرنسية واللهجة الجزائرية فما فهمت شيئا، وقابلنا أبو القاسم سعد الله نائبه-للمرة الثانية- وتحدثنا حديثا «رسميا»، كما قابلنا رئيس قسم اللغة العربية، وكان شابا هادئا بربريا متفرنسا، يتحدث العربية بلهجة حادة جدا. كان لطيفا، وقد حدثنى عن المناهج، والمهمة التى يراد منى أداؤها. وكانت قضية «التعريب» مثارة فى الجزائر-آنذاك- بشدة.

كان واجبى أن أقوم بالتدريس لمدة ثلاث ساعات فى الأسبوع ليس غير. كان العبء خفيفا جدا بالنسبة لما كنت أنهض به فى دار العلوم، ولكن «النظام الفرنسى»-وكان مطبقا لذلك العهد!-كان يحدد العبء التدريسى للأستاذ بثلاث ساعات فى الأسبوع. وصحيح أننى لم أكن أستاذا، ولكن العرف الفرنسى-مرة أخرى-كان يعتبر الأستاذ هو الحاصل على «دكتوراه الدولة» وكانت شهادتى .Ph. D عندهم تعادل «دكتوراه الدولة». وكان ذلك أول «بادرة» سارة تلقيتها.

بدأت عملى : أدرّس للسنة التحضيرية «اتجاهات الشعر العربى الحديث»، ولطلبة قسم اللغة العربية «النقد الأدبى الحديث»، وأعيش فى بيت الضيافة بمنتهى السأم والضيق، وأتطلع إلى حصولى على سكن وحضور أسرتى بفارغ الصبر. وبعد أيام استضافتنا كلية الآداب فى فندق «ريجينا»-وهو أحسن حالا بكثير من «بيت الضيافة»- وكان ذلك نتيجة لمساع قام بها أحمد فؤاد الأهوانى. فعلوها من أجله، ولما لم يكن من الممكن تجاهلى-وأنا رفيق سفره-فقد وفروا لى حجرة هناك.

بعد أسبوعين وفرت لى الوزارة شقة صغيرة فى مدينة «سكنية» جميلة تقع على مشارف المدينة، قيل إن الفرنسيين كانوا قد بنوها لسكن الفنيين، وبعد الاستقلال بقيت سكنا لكثير من «المتعاونين» (المعارين)، وقليل من الجزائريين. كانت المدينة ذات مستو عال إذا قيست بغيرها، ولكنهم أعطونى الشقة خالية تماما!.

كان الطاهر مكى قد أعطى شقة فى «المدينة» ذاتها قبل حضورى، ولكنه لم ينهض لتأثيثها والانتقال إليها. وقد شجعته حماستى للإعداد لاستقبال أسرتي، وبدأنا نؤثث معا. وبعد جولة

واحدة تبينت الارتفاع المذهل في الأسعار. ولما كنت قد حصلت من الوزارة على مبلغ زهيد -حتى يسوى أمر المرتب!- فقد اعتمدت على الاقتراض من الطاهر مكى، وكان كريما.

وبعد حوالى ثلاثة أسابيع على إقامتى فى الجزائر حل عيد الفطر. ولم يظهر له أثر فى الشوارع، ولا كان له طعم. كانت الحياة أوروبية المظهر. رأينا ثبوت رؤية الهلال فى التليفزيون، واستمعنا إلى بعض أغانى العيد فى الإذاعة، وفيما عدا ذلك كان اليوم عاديا. ولم أدر كيف احتفل به الجزائريون داخل بيوتهم.

حين أصبحت الشقة فى وضع ملائم استدعيت الأسرة فجاءت على عجل. كان الطاهر مكى فى إسبانيا (أو هران لا أتذكر) ولكنه أوصى بنا بعض تلاميذه، فذهب اثنان منهم بسيارتيهما إلى المطار لمساعدتنا. وحين وصل مى وأمين وأمهما بدأت حياتنا فى الجزائر تأخذ طابعها بمسراته ومتاعبه.

التحق «الأولاد» بالمدرسة العربية -وهى تابعة للسفارة المصرية- وبقيت زوجتى فى البيت لم تفكر فى العمل. واخترت ساعاتى «الثلاث» يوم الثلاثاء مساء -من الرابعة حتى السابعة- وأصبح الوقت المتبقى -وما أطوله!- ملكى. وتصورت -لأيام- أن

الحياة ستصفو لى، ولكن ذلك كان وهما! بعد وقت وجيز جدا تعرضت زوجتى لأزمة صحية، فهاجمتها «الصفراء» وبقيت أياما تتواجع ولا ندرى ماذا نفعل! كان من نعرفهم قليلين جدا، ولم يكن فى شقتنا تليفون يمكن أن يصلنا بأحد، وكنا على مشارف المدينة فى شبه عزلة. وقد سألنا الطاهر مكى فكانت معلوماته أنه لا يوجد طبيب يمكن أن يقوم بزيارات منزلية، كما أن سمعة المستشفى الأميرى سمعة سيئة، والمستشفيات الخاصة خيالية الأسعار والوصول إليها صعب، والأطباء المتخصصون لا يعطون موعدا أقرب من ستة أشهر. هذا إلى أن راتبنا لم يكن قد انتظم، ولم نكن نعرف حتى الطريق إلى المدينة بسهولة.

كان جارنا المواجه لنا أستاذا مصريا يعمل فى كلية الآداب ذاتها. وقد جاءت زوجته-متفضلة-لزيارة زوجتى، ولما رأت حالتها الصحية الصعبة نصحتنا أن نطرق باب الدكتور صدقى. وأخبرتنا أنه طبيب مصرى يعمل فى وحدة صحية. وقالت لنا محذرة : إنه عابس الوجه، ولكنه طيب القلب، وسيصرخ ويهدد ولكنه «سيعمل اللازم». ولم يكن بد من أن نطرق بابه متخوفين.

لم يكن لنا عهد قط بطلب المساعدة الطبية بصفتها خدمة إنسانية. كنا قد تمتعنا بخدمات طبيب الأسرة وطبيب الجامعة فى لندن. وكان لنا تأمين طبى فى جامعة القاهرة، وكان شقيق زوجتى الأكبر-وهو طبيب-يؤمن لنا الخدمات الطبية المنزلية، لذا فقد كان طرق باب الدكتور صدقى أمرا جديدا علينا، وصعبا غاية الصعوبة.

وجاء الدكتور صدقى، وكان عابسا. قدرت أنه فى السبعين من عمره. ذو ملامح صعيدية صارمة. لم يعرنى اهتماما، وتوجه بكل اهتمامه إلى «المريضة». جلس، وفحص،وكتب دواء، وانصرف. ولما كان علىَّ أن أسرع فى جلب هذا الدواء؛ إذ كان الوقت مساء متأخرا، فقد قفزت فى أول «أتوبيس» متوجه إلى المدينة. وبعد سؤال واثنين وثلاثة، وتلقى نفس الإجابة «مكاش» (لا يوجد)، أدركت أننى أواجه أزمة حقيقية. لم يكن من الممكن أن أعود بدون الدواء، ولا كان من الممكن أن أتصل بالدكتور صدقى، ولم يكن فى جيبى-حسبما قدرت-سوى ما يكفى لشراء الدواء. وقد مشيت مهموما إلى موقف «التاكسى»، وطلبت إلى صاحبه أن يمر بى على كل الصيدليات العاملة حتى أجد الدواء. كان صاحب التاكسى رجلا طاعنا فى السن، وكانت «عربيته»-

وياللدهشة–واضحة جدا. وكان صبورا، مر بى على صيدلية، وثانية، وثالثة، ورابعة، وتلقيت الإجابة ذاتها «مكاش!». وأخيرا وجدت بعضا من الدواء فى حين بدأت الصيدليات–والمدينة كلها–تغلق أبوابها.

عدت إلى البيت مملوءا بإحساس الخوف والخطر، وبدت لى مدينة الجزائرمصيدة كبيرة. ما أعظم الفرق بين الآمال العريضة التى تركت بها القاهرة، والأحاسيس التى تنتهبنى الآن! وبدأت فى تولى أمور البيت على الفور. وكنت أفعل ذلك دون تجربة سابقة على الإطلاق، ولأول مرة فى حياتى.

وتلبدت السماء بالغيوم–حقيقة لا مجازا–وبدأ عزف الريح وانهمار المطر. وعاد الدكتور صدقى لعيادة مريضته. سمعت باب المصعد ينصفق–وكنا نسكن الدور السادس–وبعد ثوان سمعت جرس الباب. دخل عابسا وسأل : كيف حال المريضة اليوم؟ ورآها، ونصح، وانصرف. وحين كنت–أودعه على باب المصعد «ظننت» أننى رأيت أساريره تنفرج قليلا، «وسمعته»–بالقطع–يقول إنه سيمر مرة أخرى! وقد لُمْت نفسى على مشاعر الضيق التى اعترتنى نحوه فى زيارة الأمس،

واعترتنى مشاعر ضيق جديدة حين علمت منه أن على زوجتى أن تبقى طريحة الفراش ستة أسابيع على الأقل.

خرجت من تجربة مرض زوجتى بأن الخدمة الطبية متدنية إلى أبعد حد فى الجزائر، وأن على مثلنا ألا يمرض فيها! وحين شكوت ذلك إلى زميل جزائرى لقيته فى ردهات كلية الآداب قال لى : ماذا تتوقع فى «بلاد العالم الثالث»؟ كانت العبارة صادقة إلى إقصى حد، ومذهلة، وكان ينتظرنا المزيد من مظاهر «العالم الثالث» فى السنوات الأربع القادمة.

وسقطت مى مصابة بالحصبة، ووجدنا الطريق إلى الدكتور صدقى، وقد أصبح أقل صعوبة هذه المرة. وقد جاء وعلى وجهه ظل ابتسامة، وعاد مريضته مرة واثنتين، وأحضر لها الدواء. وقد لاحظت أنه كان إذا اتجه إلى مى لاطفها بحنان بالغ، فإذا انتهى من مهمته وجه نصائحه إلينا بطريقة أقرب إلى الخشونة، فقلت لزوجتى – مرة – إننى فى حيرة من أمر هذا الرجل. وإذ تماثلت مى للشفاء سقط أمين بعدوى المرض ذاته، ولم نَدْعُ الدكتور صدقى، ولكنه طرق بابنا ظهيرة اليوم التالى لمرض أمين بدون دعوة. ومنذ أن دخل ركز عينيه على فراش

أمين، ولم يلق بالا لأحد منا، وداعبه قائلا : عرفت أن أمين «طب» قلت «أطب عليه» (ولن أنسى العبارة!). دهشت، ولم أقل شيئا. واستمر الرجل يأتى كل يوم ليعود أمين، وكان يحمل له الدواء والحلوى، وزاد فأرسل زوجته ذات مساء للسؤال عنه. واحترت فيما يمكن أن نفعل لنرد له الجميل، وحذرت زوجتى من أية محاولة يشتم منها رائحة رد الجميل». وحين كان فى عيادة أمين لآخر مرة جلست بحيث أرى جانب وجهه، فحملتنى ملامحه الصعيدية النموذجية – وعطفه البالغ على أمين – إلى أيام طفولتى. لكأننى رأيت فى هيئته أبى، مع أن الفرق بينهما فى الملامح كان واسعا. كان أبى نحيفا، طويل القامة، دقيق الملامح، وكان هو بدينا غليظ الملامح، ولكن الجو الذى أغرق فيه أولادى جعلنى أستشعر الحنو الأبوى، فتعلقت به فى صمت بليغ!

لم ينتظم راتبى من حكومة الجزائر إلا فى مايو ١٩٧٠، وكان ذلك بعد فترة من الشد والجذب والأخذ والرد، وبعد قرارات متناقضة من وزارة التعليم، وبعد «سلفيات» منها تقطر ثم تنقطع، واقتراض– فى انتظار الفرج – من الطاهر مكى. تأثرت بكل ذلك إلى أقصى حد، وكنت أفكر فى إلغاء إعارتى والعودة،

ولكن منعنى من ذلك المبلغ الكبير الذى كنت قد اقترضته للإعداد للسفر، وعلمى بالعجز عن سداده إن أنا عدت إلى القاهرة. كنت قليل الحيلة، محدود التجارب فى النواحى المالية والعملية، فلم أستطع أن أغامر باتخاذ قرار العودة، ولا رأيت الاستمرار-على هذه الحال-ممكنا، وحين انتظم الراتب سددنا ديوننا، واشترينا مايلزمنا، واستقبلنا الصيف بروح أفضل. صرف لى راتب أستاذ-وإن لم يكن كبيرا-وكان أسوأ ما فى الموضوع فرض قيود رهيبة على تحويل العملة إلى خارج البلد. وبدت الجزائر-مرة أخرى-مصيدة كبيرة!

وأظلتنا العطلة فعرفنا طريقنا إلى شاطئ البحر، وقضى الأولاد ساعات طويلة فى حديقة «الأسفوديل» (اسم المدينة السكنية التى كنا فيها) وخلدنا للراحة، وتعرفنا ببعض المصريين ممن يسكنون البنايات ذاتها. وعرفت طريقى إلى مكتبة الجامعة، وهى مكتبة جميلة جدا من خارجها، فقيرة فى ممتلكاتها من الكتب العربية، ولكن بها قدرا صالحا من الكتب الإنجليزية.

طالعت فى المكتبة، وفى البيت، شهور الصيف، وزادت خبرتى بمدرسة «النقد الجديد»، كما زاد اقتناعى بإفلاس المنهج

التاريخى، وبعقم تناول الأدب من واقع ظروفه التاريخية أو الاجتماعية. وبدأت فكرة مواجهة النص بصفته «بنية» أو «معمارا لغويا» تسيطر على ذهنى. كنت قد قرأت ما كتبه ت. س. اليوت فى الموضوع، وما عرضه رشاد رشدى من أفكار اليوت، وما كتبه مصطفى ناصف. وقد قرأت الآن التحليلات التطبيقية التى كتبها النقاد الجدد أمثال تيت، وبروكس. وهالنى أن قسما كبيرا من التأليف فى اللغه العربية لا يزال متلكئا عند «الأدب والمجتمع» و «الأدب والسياسة» و «الأدب والأخلاق» أو عند «فلان-حياته وشعره». وصح عندى أنه لا مخرج للدراسات الأدبية لدينا إلابطرح كل هذه المناهج الصدئة التى تعرض للأدب «من خارجه»، ومواجهة الأدب ذاته. ومن داخل نسيجه. لم يكن يعجبنى من مصطفى ناصف غلوه فى الاستنتاج-إلى الحد الذى يوحد فيه مثلا بين امرئ القيس وحصانه- ولكننى أصبحت مقتنعا بأن طريقة غيره فى «المسح التاريخى» و«نثرالشعر»، هى السبب الحقيقى فى أزمة الدراسة النقدية لدينا. وعرفت أن علىَّ أن أقدِّم قراءتى الخاصة لنصوص أدبية أختارها، وقد تحقق ذلك قبل عودتى من الجزائر؛ فقد عدت أحمل «مخطوطة» كتابى : «قراءة الرواية».

مع بدء عامنا الثانى فى الجزائر أصبحت أدرك - على نحو أوضح - معنى أننى فى بلد من بلاد «العالم الثالث». هى جميلة جدا إذا نظرت إليها، خضراء، متنوعة الشكل بين سهل وجبل، بيوتها بيضاء ناصعة، وكذلك قمم جبالها، خريفية فى الخريف، وربيعية فى الربيع، وصيفية فى الصيف، وشتائية فى الشتاء، وما الذى يمكن أن يكون أجمل من ذلك ؟ وهى هادئة متوحدة، ولا تطلب منى أكثر من ثلاث ساعات فى الأسبوع. ولكن الإجراءات التى يتطلبها تجديد الإقامة فى البوليس مثلا شئ لا يحتمل، والخروج من المطار - كما سمعت وإن كنت لم أجرِّب بعد - تجربة مخيفة، والناس معتزون بأنفسهم إلى حد الفظاظة، ولا شيء فيما عدا المواد الغذائية الأساسية، يشترى أو يباع. والمهم أن عليك ألا تمرض، وأن تتفادى رؤية أى مسئول. وقد وجدت فى هذا التحليل راحتى؛ فقد كنت بطبعى أميل إلى العيش فى «داخل» نفسى. وهكذا كان عامنا الثانى فى الجزائر أفضل قليلا - من عامنا الأول!

وكان برنامج عملى طوال هذا العام (١٩٧٠-١٩٧١) ثابتا: فى الصباح الباكر آخذ «مى وأمين» إلى مدرستهما-

صـاعـديـن وهـابـطـيـن فـي الـطـريـق الـمـتـعـرج بـالأتـوبـيـس إلـى «حيدرة»— وأعود فأكون فى المنزل حوالى الثامنة، فأتناول إفطارا خفيفا على الطريقة «الفرنسية—الجزائرية»، ثم أعمل حتى منـتصَف الـنـهـار. وكنت أعمل—كعادتى دائما—على «مائدة الطعام»، وقد اشتريناها مستعملة من سوق «الحراش». كانت بيضاوية الشكل من الخشب الصقيل، متينة جدا، ولامعة كالمرآة، واشترينا لها ستة كراسى معدنية خفيفة، ووضعناها فى ركن من الردهة الرئيسية فى «الشقة» وكانت هذه الردهة تشرف على الحديقة الخلفية بواجهة زجاجية كاملة تفضى إلى «بلكونة» فإذا جلست رأيت—لارتفاع المكان—المنظر كاملا ممتدا فى «سهل متيجة» حتى جبال الأطلس المتوسط «الشريعة» التى تقف مهيبة شامخة مجللة بالثلج الناصع تحت أشعة الشمس. لم أكن قد رأيت منظرا طبيعيا أروع من هذا فى حياتى، وكنت دائما أجلس فى وضع يجعلنى أملأ عينىَ منه، وأعمل.

كـان عـمـلـى يـجـرى عـلـى ثـلاثـة «مـحـاور» : الإعداد للمحاضرات، والعمل فى كتاب «قراءة الرواية» ثم العمل فى ترجمة كتاب روبرت همفرى «تيار الوعى فى الرواية الحديثة»،

وكنت قد التقطته من مكتبة جامعة الجزائر وقرأته بشغف، مرة واثنتين.

وكانت لى جلسة عمل أخرى فى المساء تحت الضوء الباهر، وراء الزجاج والشراع المغلق، قد تستغرق أربع أو خمس ساعات. كان هذا نظام عملى من صبيحة الإثنين إلى مساء السبت (وذلك فيما عدا عصر الثلاثاء الذى كنت أذهب فيه لأداء واجبى التدريسى فى الجامعة) فإذا كان مساء السبت توقفت؛ وقضيته، مع الأحد بكامله، فى راحة تامة. وكانت عطلة نهاية الأسبوع تمر بنا فى البداية دون خطة فنقضيها فى البيت «والأولاد» يلعبون فى الحديقة. وحدث مرة أن دعانا الدكتور صدقى لنزهة خلوية يوم الأحد – وكان يمتلك سيارة – فذهبنا معه بصحبة زوجته وحفيده، وقضينا يوما جميلا متنوعا بين الشاطئ الأزرق، والغابات الكثيفة، وحقول الكروم المنبسطة. وقد كان هذا بداية تعرفنا على بعض الغابات القريبة، فاتسعت خطوتنا نسبيا فى «الخروج».

عملت فى كتابى « قراءة الرواية» و «تيار الوعى» عاما كاملا، وفى آخر ١٩٧١ كانت «مسودتهما» جاهزتين، وأخذت

أنقح فيهما على مهل. وكنت قد زرت باريس فى يناير١٩٧١ بصحبة الطاهر مكى «وخطفنا رجلنا» إلى مدريد فأقمنا ليلتين.وقد تمكنت بمبلغ – حوَّله لى أخى الأكبر وكان قد ذهب معارا من وزارة التربية إلى الكويت من حجز سيارة بيجو ٤٠٤. فى مدريد رأيت رقص «الفلامنكو»، وعادت إلى ذهنى الحيوية الغريبة التى شملتنى ليلة مشاهدة «عرس الدم» للوركا فى مسرح صغير من مسارح لندن. وحدث أن تأخر بنا الطيران من مدريد فوصلنا الجزائر بعد يوم من افتتاح الدراسة فى الفصل الدراسى الثانى. وقيل لنا إن مدير الجامعة–وكان متفرنسا بالطبع–مر، وفتش، وأمر بوقف راتبى وراتب الطاهر مكى. وقد بقينا فترة طويلة نعالج هذه المسألة فى ملابسات غريبة ومضحكة. وحين عاد المرتب–بعد شهور وباضطراب كامل فى الأرقام– رأيت شاهدا إضافيا على أننى أعيش فى «العالم الثالث».

وفى صيف ١٩٧١ زرت باريس للمرة الثانية، وعدت بسيارتى لأخوض تجربة أخرى هى تجربة تعلم «القيادة»، وكانت هى التجربة الثانية المثيرة فى حياتى بعد تجربة تعلم اللغة الإنجليزية. وحين حللت هذه المشكلة انتقلت إلى مرحلة

رأيتها جديدة فى حياتى. لقد كنت قبلا أعد نفسى إنسانا بلا مهارات، ولكننى الآن أستطيع أن أقود السيارة، وأستطيع أن أتكلم لغة أجنبية، وأستطيع أن أتعامل مع الطلاب من غير بيئة دار العلوم، وقد رأيت المدن الأوروبية، لندن وباريس ومدريد، وعشت فى بعضها طويلا. وبدأت أنتبه إلى أن ثمة أشياء جميلة فى الحياة، وأن المتعة بالدنيا شىء طبيعى، وكنت من قبل أعتقد أننا خلقنا للعمل -وفى الظروف الشاقة- ليس غير.

كان الطاهر مكى يدعونى إلى داره كثيرا، وكنا نسكن بناية واحدة ممتدة عرضا، ويفصل بيننا حوالى خمس دقائق. ولما كان «وحدانيا» فقد كان يتفنن فى إعداد الطعام والشراب. وكانت الأحاديث تأخذنا كل مأخذ، وأشهد أننى استفدت من خبرته بالناس والدنيا، فقدم لى -بعد السعيد بدوى- أكبر خدمة فى هذا الجانب.

ومع وجود السيارة، ومضى الحياة، أصبحنا نتجول على نحو أوسع فى أرجاء الجزائر، وتوثقت صحبتنا بأول أسرة جزائرية هى أسرة أبو القاسم سعد الله. كان أبو القاسم سعد الله زميلاً لى - كما أشرت - فى دار العلوم، وكان فى

استقبالى باعتباره مسئولا يوم وصلت الجزائر، ولكننى لم أقترب منه فى البداية. بل أذكر أنه قبل أن تصل أسرتى إلى الجزائر دعانى مع فؤاد الأهوانى لتناول طعام الإفطار فاعتذرت عن عدم التلبية. وقد لامنى الأهوانى على ذلك. وبعد شهور - وكانت أسرتى معى - كرر الدعوة، وكان يسكن فى نفس «المدينة السكنية» التى كنا نسكن فيها، فذهبت مع أسرتى، وتناولنا العشاء فى داره، وقد قدم لنا زوجته - وكانت قد تخرجت لتوها من الجامعة وتتكلم الجزائرية - فتبادلنا كلمات قليلة. وبعد شهور أخرى دعوناهم إلى دارنا فلبوا، وبعد شهور أخرى - وكنا قد امتلكنا السيارة - دعونا للخروج معهم إلى الشاطئ فلبينا. وشيئا فشيئا طابت لنا صحبتهم، ووجدنا فى طبائعهم ما قربنا منهم. كان سعد الله صحراويا، قريب الروح والنشأة منى، وكانت زوجته من أسرة طيبة وتمتاز بهدوء ودعة غريبين، وقد أصبحت بسرعة صديقة لزوجتى. وكان سعد الله قد تحول من اللغة العربية إلى التاريخ، وأصدر ديوان شعر، وله مطامح علمية واسعة، فكنا نجلس ونتحدث طويلا عن ذكريات دار العلوم، وأحوال الثقافة، ومشكلات العالم الثالث، وأمور الدنيا. وحدث أن

أصيب مع زوجته فى حادث سيارة فأدينا نحوهما - مدة إقامتهما فى المستشفى وما بعدها - الواجب العادى، ولكنهما حملا ذلك جميلا، ووجدنا أنفسنا قريبين منهما، بعد أن زالت عنهما آثار الحادث، فزادت رؤيتنا لهما، وأغدقا عطفا حقيقيا على مى وأمين، ولم يكن لهما - لذلك العهد - أولاد.

والشيء الذى أدين به لسعد الله أنه عرفنى على أحمد فكرى وزوجته درية فهمى. كانا أصلا أستاذين فى جامعة الإسكندرية، ومن رعيلها الأول، وبعد التقاعد عملا فترة فى العراق، ثم انتقلا إلى الجزائر فى السنة التى ذهبنا فيها إليها، وسكنا فى «المدينة السكنية» ذاتها. وحين دعينا لزيارتهما لأول مرة لفت نظرى ذلك الذوق الرفيع البسيط الذى كان ينطق به «تأثيث الشقة». كان شيئا غريبا على «شقق» المصريين العاملين فى الجزائر، وقد توثقت علاقتنا بهما، وشعرنا-فى كنفهما- بما يشعر به الأبناء المحظوظون فى كنف الوالدين الرحيمين. وفى آخر عهدنا بالجزائر صرنا نراهما كل يوم تقريبا. وحين عدنا- جميعا-زرناهم فى الإسكندرية-وكنا هناك للاصطياف-سنة ١٩٧٤ فى شقتهما الجميلة، فى عمارة «الجمعية الخيرية»

بالشاطبي. وزارنا أحمد فكرى فى شقتنا بمصر الجديدة، وفى ١٩٧٥ انتدب للعمل مرة فى الأسبوع فى كلية الآثار. فكنت أمر عليه ذلك اليوم فى ڤيلا زوج أخته فى شارع رمسيس بمصر الجديدة، فأصحبه إلى الجيزة، وأعود أنا للتدريس فى دار العلوم فى مبناها بالمنيرة. ودامت الصحبة، وطابت، عاما كاملا، ثم مرض واعتكف فى الإسكندرية شهورا انتقل بعدها إلى جوار الله. لقد حزنت عليه كما لم أحزن على أحد، وما مررت «بڤيلا السرجانى»، حيث كان ينزل، وحدى أو بصحبة أسرتى، إلا ذكرته وترحمت عليه. كان إنسانا بمعنى الكلمة. وقد حكى لى تاريخه الطويل مع رجال الثورة فى بدايتها، ومع طه حسين، وفى اليونسكو بباريس. واستفدت من وجودى بقربه فوائد معنوية كبيرة.

وفى صيف ١٩٧٢ اقترح علينا الطاهر مكى أن نقضى إجازتنا فى إسبانيا. كانت الفكرة جميلة ومثيرة، ولكنها بدت صعبة التحقيق. كان لدينا بعض المدخرات بالعملة الجزائرية، ولكنها–فى ظل قوانين النقد الفظيعة–لم تكن تجدى شيئا. ومن الغريب أن كل من نعرفهم كانوا يسافرون إلى أوروبا ويعودون،

مع أنهم-من الناحية النظرية-يخضعون للقوانين ذاتها. وكنت أعجب لقانون صارم جدا في الظاهر، وثغراته تسمح بمخالفته على نحو شبه «روتيني». كنت أرى أن عدم إتاحة الفرصة لى للتصرف فيما أملك-وبالطريقة التى أراها-أمر لا يسوغه أى قانون، ولكن فكرة «العالم الثالث» كانت تردنى إلى أرض الواقع المر. ومع ذلك كان قد بقى لنا من المبلغ الذى أودعه لى أخى فى باريس ما يكفى للرحلة، فعقدنا العزم، ورتب الطاهر مكى لنا مكانا ملائما فى «اليكانت» على الساحل الجنوبى، وكان قد سبقنا إلى هناك.

حين جاءتنا من الطاهر مكى إشارة «حجز الفندق» أخذنا السيارة إلى وهران- أقصى نقطة فى الغرب الجزائرى-وأقمنا فى فندق فخم، (ولم لا مادام الحساب بالعملة الجزائرية؟)، ثلاثة أيام، وبعد تفتيش مهين فى المطار لى وللأولاد عبرنا بالطائرة إلى الأندلس فوصلنا «اليكانت» فى المساء. كانت المدينة تتألق كالزمردة، وكان الفندق الذى اختاره لنا الطاهر مكى غريبا حقا: آية فى التواضع، والبساطة، والنظافة، والراحة.

شغلنا حجرتين متجاورتين، وكنا نتناول الإفطار والغداء فى مطعم الفندق، ونتمتع بالخدمة الممتازة، والأطعمة اللذيذة،

والفواكه المتنوعة، أما العشاء فكان حرا فى المدينة، وكان كل يوم ذا مذاق خاص. وعادت بى الذكريات إلى أيام المجد العربى فى إسبانيا. شاهدت المسجد الجامع الذى تحول إلى كنيسة، وشاهدت بعض «الزوايا» التى تحولت إلى معابد صغيرة. ثم مضينا بالقطار وسط حدائق البرتقال والليمون إلى «بلنسية»، مارين بعدد من المحطات التى لاتزال تحمل أسماء عربية، ومتنفسين عطر التاريخ والجغرافيا معا. كان الأولاد مبهورين بالمكان إلى أقصى حد، وكنت بذلك سعيدا. كنت وزوجتى لانزال شابين على نحو أوآخر–وكان الأمل فسيحا. وكان الجو ساحرا، والمناظر خلابة، والمشاعر مفعمة. وقد مرت أيام العطلة العشرون كلمح البصر، وكان لابد أن نعود إلى الجزائر. وقد أخذنا البحر إلى وهران فى رحلة تمتع بها أمين دون، مى التى هزها دوار البحر وأخافها. وبعد أن استرحنا ليلة فى وهران عدنا إلى الجزائر العاصمة لنبدأ فيها عامنا الأخير.

وفى خريف ذلك العام مررت بالأزمة الصحيحة الثانية فى حياتى، وهكذا لم أستطع تجنب «ضرورة ألا يمرض الإنسان فى الجزائر». وقد ساعدنى سعد الله على دخول مستشفى خاص، هو

ذات المستشفى الذى حمل إليه هو وزوجته حين أصيبا فى حادث السيارة. وبعد خروجي من المستشفى بقيت فترة طويلة أعانى من الآلام ولا أستشعر « الشفاء العاجل». وقد عادنى الدكتور صدقى، كما عادنى طبيب جزائرى شاعر كنت قد كتبت له-فى العام السابق-مقدمة ديوانه الأول. وبعد حين تحسنت صحتى، ولكن المخاوف التى انتابتنى أصابتنى بحالة من الهلع، لم أنج منها إلا بتركى الجزائر.

وفى هذا العام الأخير مر بنا السعيد بدوى ، عائدا من أمريكا عن طريق انجلترا، وفى طريقه إلى مصر. كان قد ترك دار العلوم إلى الجامعة الأمريكية، وتولى مسؤلية إدارية فى تعليم اللغة العربية للأجانب. وصل إلى الجزائر فى طائرة متأخرة حوالى منتصف الليل، وصادفت زيارته زيارة محمود قاسم إلى الجزائر. وحين أخبرته بموعد وصول السعيد أصر على أن يكون فى استقباله فى المطار. لم يخرج السعيد من المطار حتى حوالى الواحدة صباحا، وحين وصلنا-ثلاثتنا-إلى بيتنا فى «الأسفوديل» كانت الساعة حوالى الثانية، وكانت زوجتى قد أعدت عشاء خفيفا فأكلنا وتحدثنا، وحوالى الثالثة

والنصف أوصلنا محمود قاسم إلى فندقه فى وسط المدينة، وحين عدنا طلب السعيد قهوة فشربناها مع «تباشير الصباح»، ثم ذهبنا إلى شقة الطاهر مكى-وكان فى إسبانيا- وكان قد ترك مفتاحها عندنا تحسبا لوصول السعيد ليقيم فيها. وفى العاشرة صباحا انضم السعيد إلينا من جديد، فخرجنا لتناول الغداء فى إحدى الغابات القريبة. دامت أيام السعيد القليلة حافلة بالنشاط. كان كعادته خفيفا كالطيف وقد ملأ حياتنا سرورا، وكان قد اشترى من لندن «مسدسا -لعبة » لأمين، ولكن ربان الطائرة أصر على أن يحتفظ به ليسلمه إلى صاحبه (السعيد) فى نهاية الرحلة. وفى نهاية الرحلة (الجزائر) لم يعثر له على أثر. وقد تداول طاقم الطائرة إثر استفسار السعيد عن المسدس-اسم «الكابوسة» (المسدس) ولم يفهم هو شيئا مما قالوه. ولا يزال السعيد-بطهارة قلبه-يعتقد أن المسدس فقد من الطيار، على حين أعتقد أنا-بخبرتى-أنه آثر به ابنه، ولا يزال موضوع «الكابوسة» موضوع تندر بيننا. ولما حاول السعيد أن يعوض أمين عن «الهدية-الحلم» اكتشف-دهشاً-أنه لا يوجد فى الجزائر ما يهدى، وقد قلت له لو كان يوجد فى الجزائر ما يعوض

به أمين عن هديته ما اختفت «الكابوسة» أصلا !. كذلك زارنا- فى فترة إقامتنا الأخيرة فى الجزائر-إبراهيم الترزى. وقد شمر الأولاد عن ساعد الجد، واشتروا فرشاة وصبغة، وأعادوا طلاء غرفتهم- التى سيقيم فيها خالهم معهم-وكانت جدارنها قد تحولت بفعلهم طيلة السنوات الثلاث الماضية إلى ما يشبه «عش الزنابير». وصل إبراهيم الترزى بطقوسه وأخباره فجدد ركود حياتنا. وسافر فى أرجاء الجزائر الواسعة فوصل إلى عاصمة «القبائل» (البربر) «تيزى ووزو»، وزار قمم الجبال، وتذكر واعتبر-وكنت معه فى كل ذلك-وروى له كل من مى وأمين نوادرهما عن الجزائر. قالت مى «ذهبت إلى حانوت» عم الحاج «وقالت له : من فضلك إزازة لبن» فصرخ ينهرها : جع (جميع) البلاد يقولوا حليب وأنتما برك (فقط) اللى تقولوا لبن! واش (ما) هاذيك (هذه) العوجة (اللغةالمعوجة) ؟» وقال أمين :اعتدت أن أذهب كل يوم إلى السوق المجاور فى الصباح أشترى «أربع كروساه (الفطائر الفرنسية المعروفة) والشعب (الجريدة الصباحية العربية) ويوم وصول خالى ذهبت كالعادة ولما رآنى صبى الحانوت قال : « أربع كرواساه والشعب»فقلت : لا، خمس

كرواساه والشعب. وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى يبادرنى فيها بأنه يعرف ما أريد».

وفى هذا العام رقيت أستاذا مساعدا فى دار العلوم. وكان إنتاجى العلمى الذى تقدمت به كتابين هما «فى نقد الشعر» و «الصوت المنفرد»، وتسع مقالات نشر أربع منها فى مجلة «المجاهد» الثقافى الجزائرية. وقد سررت أن مرت ترقيتى سهلة، وفى غيابى، كما سررت إذ علمت أن الأساتذة الذين كتبوا تقرير ترقيتى أثنوا على مجهودى العلمى.

وبانتهاء العام تهيأنا للعودة. وقد لقيت عنتا شديدا فى إجراءات الخروج، وشحن الأمتعة، والحصول على حقوقى المالية، وصح عندى أننى أعيش فى بلد هى نموذج للعالم الثالث. وقد بلغت الأمور ذورتها فى مسألة شحن السيارة؛ فعلى حين وجدت «استحالة» فى شحنها إلى الإسكندرية، وجدت سهولة شديدة فى شحنها إلى «مارسيليا». ومن هناك تكفل صديق جزائرى هو عبد الرزاق جسوم بإعادة إرسالها لى إلى الإسكندرية.

كان فى وداعى فى المطار اثنان – أو ثلاثة – من تلاميذى، وصديق مصرى. وقد خضعنا لتفتيش دقيق، وكان من

يرانا يعتقد أننا لابد أن نكون «مهربين». وقد كومت ملابسنا القليلة بصورة مزرية، وعلى حين كنت مشغولا مع مفتش الجمرك، الذى كان يفحص بدقة، كانت عاملة الميزان تخبرنى بأن علىَّ أن أدفع كذا وكذا للوزن الزائد. وكنت قد حسبت لذلك حسابى، ووزنت أمتعتى على ميزان استعارته زوجتى من أسرة مصرية صديقة قبل أن نغادر البيت، ولم أر لذلك ضرورة لحمل نقود جزائرية على الإطلاق (وما فائدتها ؟)، ثم فوجئت بما ادعته مسئولة الميزان. وأنا متأكد الآن أن ما قالته كذب صريح، وأن التفتيش الذى قام به مسئول الجمرك كان مفتعلا ليسهل لها مهمتها فى غمرة انشغالى. لقد أحاط بى جو يشبه قصص الابتزاز فى الأدب العالمى، واستغلال حيرة السذج الأبرياء. وقد اضطررت للاقتراض من الصديق المصرى وأنفى راغم. وحين جزنا عتبة المطار، وحلقت بنا الطائرة، اعتبرت أننا حصلنا على «نصف ميلاد». أما لحظة هبوطنا فى مطار القاهرة فكانت عندى لحظة «الميلاد الكامل». وفى طريق الخروج من مطار القاهرة كنت مستعدا- بطريقة أوتوماتيكية-لخوض محنة «التفتيش» من جديد، ولكن المسئول نظر نظرة لا مبالية فوتت

على غرضى وقال : من أين جئتم؟ قلت : من الجزائر، وكانت يدى قد فتحت الحقيبة فعلا. فابتسم، وناب عنى فى إغلاقها، وقال : تفضل، وماذا عسى أن تكونوا قد جلبتم من الجزائر؟.

انتهت بعودتى للمرة الثالثة إلى دار العلوم فترة عصيبة من حياتى، ولكنها لم تخل من فوائد. عدت بمسودتى كتاب «قراءة الرواية» وكتاب «تيار الوعى فى الرواية الحديثة»، وبصداقة سعد الله وأسرته، وجسوم وأسرته، وبذكريات حلوة لإخلاص تلامذة قليلين جاء اثنان منهم لمواصلة دراستهما الجامعية بإشرافى - وهما عثمان بدرى وتسعديت حمودى- وكانا زوجين. وقد قضيا فى دار العلوم أياما أعتقد أنها كانت مفيدة لهما، وعادا للتدريس فى قسم اللغة العربية هناك بعد حصولهما على الماجستير.

★ ★ ★

دار العلوم مرة ثالثة

عدنا إلى البيت «القديم» فى «مصر الجديدة» وعدت أؤدى العمل ذاته فى دار العلوم، وتؤدى زوجتى عملها فى المدرسة الإنجليزية فى مصر الجديدة، وواصل الأولاد دراستهم فى مصر الجديدة. وهكذا التأم شملنا الأسرى -بالمعنى الواسع- من جديد. وبقينا مدة نصارع فى سبيل الاستقرار. وأتذكر أننى كنت على موعد لتسلم أمتعتى التى جاءت من الجزائر بحرا إلى جمرك الإسكندرية يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣. ذهبت فى صحبة السعيد بدوى وفى سيارته -ونزلنا فى شقته بالعجمى. وحين سمعنا خبر عبور الجيش المصرى قناة السويس ملأتنا المفاجأة بالدهشة والتأثر. وفى المساء نزلنا المدينة، واتصلنا تليفونيا بالدكتور فكرى مستأذنين فى الزيارة، وقضينا معه وزوجته وقتا طويلا نستمع إلى الأخبار، وإلى تحليلاته للموقف. وفى الصباح عدنا

إلى القاهرة بعد أن «استخلصت» أمتعتى، وتركتها لدى أحد «بلدياتى». وتوالت الأخبار.

طلب إلىَّ السعيد أن أقوم بأداء بعض الدروس فى الأدب العربى للطلاب الأمريكان فى الجامعة الأمريكية، فأصبحت ألقاه ثلاث مرات فى الأسبوع، وكنت أرى عملى-بعد أن قل عدد ساعات التدريس لترقيتى إلى أستاذ مساعد وبعد أن امتلكت سيارة-ميسرا. وبدأت أتفاوض مع دار المعارف لنشر الكتابين اللذين عدت بمسودتهما من الجزائر.

وفجأة توفى رئيس القسم، ووجدت نفسى-نتيجة لهذا الظرف المأساوى-قائما بأعماله. كنت قد وطنت نفسى على أن أعيش حياتى المحدودة، ولكننى وجدتنى بحكم الظروف الجديدة-مضطرا لأداء واجبات متعددة، والاحتكاك بكثير من الناس، واتخاذ قرارات ومواقف فى كثير من الأمور. وقد أصبحت بين يوم وليلة عضوا فى مجلس الكلية، وعدد آخر من لجانه، ومسئولا عن القسم فى مستوى الليسانس والدراسات العليا. والذى جعل الأمر عسيرا حقا أنه تصادف أن لم يكن فى القسم عضو هيئة تدريس غيرى، وقد مضيت فى العمل على سجيتى،

ولم يكن فى وسعى أن أفعل غير ذلك. وأنا على يقين الآن أن أسلوبى فى العمل لم يرض البعض، ولكننى أحس-حين أستعيد تلك الأيام- أننى لست نادما على شىء.

وبعد عام صدر كتابا «قراءة الرواية» و «وتيار الوعى»، واتصل عملى فى الجامعة الأمريكية، وانضم للعمل هناك فاروق شوشة، وسرعان ما أصبح والسعيد بدوى صديقين حميمين، وأصبح مكتب السعيد بدوى-المكيف الهواء والمضياف-واحة نهفو إليها من هجير الصيف، ومشكلات العمل. كنا نتلاقى كثيرا، ونخرج لتناول الطعام فى الأماكن العامة، وكان فاروق شوشة- ولايزال-خبيرا فى هذه الناحية. ثم كانت لنا جلسة «شبه دورية». بدأت فى حديقة جروبى فى شارع عدلى، وانتقلت إلى «تيراس» سميراميس (قبل هدمه) واستقرت فى «سان سوسى» فى ميدان الجيزة. وكان من روادها-وبخاصة فى مراحلها الأولى-أبو المعاطى أبو النجا، وسليمان فياض، وعبد المحسن بدر، وإبراهيم الترزى.

كنت قد واجهت بوفاة رئيس القسم المفاجئة سيلا من طلابه الذين كان يشرف عليهم. وعند أول اختبار «لجديتهم» فى

العمل تهاوت الأكثرية، وصمدت الأقلية. وكان مفاجأة لى ان بعض فلول الفئة المتهاوية ذهبوا إلى زميل فى كلية أخرى فقبلهم على الفور! وذلك على الرغم من معرفته الأكيدة بانتمائهم إلى القسم. وقد كشف لى هذا المسلك غياب جانب خطير من تقاليد «الإشراف العلمى» لدينا. وقلت لنفسى : أيمكن أن يحدث هذا فى جامعات الدول المتحضرة ؟ وتذكرت حالات فى انجلترا كان السؤال الأول الطبيعى فيها للطالب الذى يريد أن يغير مشرفه عن أسباب تركه، ووجوب الحصول على موافقته، وجعل ذلك شرطا للقبول عند المشرف الجديد. واكتشفت أن قنوات البحث العلمى لدينا «مسدودة»، وأن جو التوجس والحيل هو السائد.

وكان بعض طلابى فى الدراسات العليا يشتكى إلىَّ من صعوبة التخرج على يدىَّ، ويقارنون بين حالتهم وحالة زملائهم الذين يمرون مرورا سهلا فى أقسام أخرى. ولكننى لم أتهاون قط فى هذه الناحية. كنت أعتقد أن التساهل أحد أسباب تخلف البحث العلمى لدينا، وأننا محتاجون لنتغلب عليه إلى أخذ أنفسنا بمزيد من الشدة. وأعترف أننى لم أحقق فى هذا الجانب نتائج ترضينى.

وإذ أتيحت لى المشاركة فى مناقشة بعض الرسائل تكشف لى مزيد من جوانب الانهيار فى مجال البحث العلمى. وقد سجلت - فيما بعد - ملاحظات عن هذا فى مقدمتى لكتاب «حاضر النقد الأدبى» الذى ترجمته عن الإنجليزية ونشرته دار المعارف سنه ١٩٧٥. كان واضحا أن عددا كبيرا جدا من الطلاب من الوافدين العرب، أو من المصريين العاملين فى البلاد العربية. وكان القسم الأول يحاول أن يخترق إلى أهدافه كل سبيل، ويلقى تعاطفا من بعض المشرفين، كما كان القسم الثانى، الذى انقطعت به سبل العلم، ويريد، وقد استكمل جانب المال، أن يتجمل بالعلم، يلقى التعاطف ذاته. وكان الإشراف على أحد النوعين أو الاشتراك فى مناقشته محنة. كان من الواضح أن «العلم» و «الدربة على البحث» «واستيفاء الشروط الصحيحة» فى جانب، وهولاء فى جانب آخر.

وكان الشباب الذى تخرج حديثا قد أدركه ما أدرك الحياة، وشمله الانهيار فيما شمل. كان ضعيفا جدا في العلم، ودون المستوى المطلوب للبحث العلمى بمراحل. وزاد الطين بلة ما سُن من لائحة تكليف المعيدين، وضياع فرصة «التعرف» على النوع

قبل اختياره. وبدأ معمل «التفريخ» يزحف من الدرجة الجامعية الأولى إلى الدرجات العليا. وكنت أقول لنفسى : إذا كان قانون «القوى العاملة» قد استوعب بعض نتاج «معمل التفريخ» الأول، فما الذى سيتفتق عنه الذهن لحل «نتاج» معمل التفريخ الثانى؟ وهل ستنشأ أقسام لاستيعاب هؤلاء «المكلَّفين» من حملة الماجستير والدكتوراه؟ ومن ثم كليات ؟ ومن ثم جامعات؟

ولفت نظرى–من ناحية أخرى–انحياز «المشرفين»–إلى حد التعصب إلى «تلاميذهم». وكان من الصعب أن تتم مناقشة صريحة واضحة لرسالة، تترتب عليها نتيجة طبيعية صريحة واضحة. كان المشرف يعتقد كثيرا أن النتيجة «فى وجهه». وأن امتياز الطالب «يعنى» امتياز المشرف». كانت هذه حال الأغلبية، وبقيت أقلية عصمها الله. ومع انهيار المستوى العلمى رخص ثمن التقديرات، فأصبح «ممتاز» و«مرتبة الشرف» هما الأصل، وأصبح «جيد جدا» قليلا، وأصبح «جيد» يثير الدهشة، وأما «مقبول» فأصبح بندا «معطلا» فى اللوائح. وأذكر الليلة التى منحت فيها رسالة تقدير «جيد» فى قسمنا فاعتبرت «مذبحة» حقيقية، وترتب عليها ما ترتب ، كما أذكر الطالب الذى

منح مرتبة الشرف «الثانية»-وكنت مشرفا عليه-فأبى أن يصافحنى بعد إعلان النتيجة.

حين ظهر كتابا «قراءة الرواية» و «تيار الوعى» لقيا اهتماما قليلا. وكنت أسمع عن اللامبالاة التقليدية التى تتلقى بها الأعمال الجديدة فلا أكاد أصدق، كما كنت أسمع عن «قتل» بعض الأعمال عن طريق الصمت عنها، فأعتبر ذلك من قبيل التندر. وأذكر أن كتابى «فى نقد الشعر» لم يظفر سوى بمناقشة فى البرنامج الثانى (كان وراءها-بالطبع- فاروق شوشة).

وبعد فترة لقى كتاب « قراءة الرواية» بعض الاهتمام الصحفى. وقد فهمت أنه ربما عاد ذلك إلى أنه يتناول بعض أعمال نجيب محفوظ وقد سعدت على كل حال بأن نجيب محفوظ-وقد سئل فى صحيفة عن أى المناهج التى تنوول بها أدبه أحب إليه- أشار إلى كتاب «قراءة الرواية» وامتدحه. ثم نظم حامد طاهر مناقشة للكتاب فى دار العلوم تحدث فيها الأب جاك جوميه-وله كتاب عن الثلاثية-وأبو المعاطى أبو النجا، وفاروق شوشة. وقد نوقش الكتاب بماله وما عليه وكنت بذلك سعيدا جدا. وكتب عنه أبو المعاطى فى مجلة اسمها « الزهور»،

كانت تصدر بصفتها ملحقا أدبيا للهلال، وكذلك كتب حماسة عبد اللطيف مقالة عنه فى مجلة «الثقافة». وعقدت ندوة إذاعية عنه قال فيها أحد الأساتذة النقاد إنه ردة فى النقد الأدبى (وكنت قد استنكرت فى المقدمة تطبيق مناهج العلوم الأخرى على الأدب ودعوت إلى منهج أدبى خالص) وقال عنه أستاذ آخر إنه يخلو من المراجع، غير أننى لاحظت أنه بعد سنين أصبحت كلمة «قراءة» هى «الموضة» الشائعة فى النقد (وليس معنى هذا أبدا أننى أريد أن أرجع انتشارها إلى أننى استعملتها؛ فلم أكن أول من استعملها على كل حال) وبدأ بعض الزملاء الذين لم يكن لى بهم معرفة شخصية يطلبونه، ثم يسود الصمت !

عدت إلى العمل بالهمة التى كنت أعمل بها قبل السفر إلى الجزائر، وعلى «مائدة الطعام» ذاتها. كنت أعمل فترة صباحية وأخرى مسائية، إذا كنت فارغا، فإذا كان لدىَّ عبء تدريسى صباحى عملت فترة مسائية. وقد نشرت مقالاتى فى «حوليات دار العلوم» و «الثقافة». و «الكتاب» و «الهلال» و «والموقف العربى»، ومجالات أخرى.

أما سنة ١٩٧٦ فقد قضيتها جميعا أقرأ فى كتب النقد العربى القديم. وكان محببا إلى قلبى أن أجمع بعض نصوص هذا النقد وأقدمه إلى القراء الذين تم «شبه كمال انقطاع» بينهم وبين هذا التراث. لم يكن اختيار النصوص مسألة صعبة، ولكن كيفية تقديمها للناس هو الذى شغل فكرى مدة طويلة. وبعد عمل فى مقدمة «المختارات» استغرقنى ستة أشهر ظهر كتابى «نصوص من النقد العربى القديم » عن «دار المعارف» منتصف سنة ١٩٧٧. وكنت أُسَر إذ أرى كتابا جديدا لى ينشر، ويعرض فى واجهات دور النشر، ولم أكن فى هذا أعرف «الاكتفاء».

وفى ذلك العام أسس اتحاد الكتاب فسارعت إلى الاشتراك فى جمعيته التأسيسية متحمسا، ولكن الصراع الغريب الذى رأيته خلال انتخاب أعضاء مجلس الإدارة (وأحسبه غريبا علىَّ وحدى !) لم يشجعنى على الاستمرار فى متابعة نشاطه. وفى العام ذاته أصبحت عضوا فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب. وقد عملت فى هذه اللجنة بجد وحمدت للأستاذ محمد خلف الله (رحمه الله-وكان مقررا للجنة ووراء اختيارى ولا شك) هدوءه وصبره ومستواه الرفيع الذى لم يتخل عنه قط

فى التعامل. ولكننى لم أرتح قط إلى بعض الملابسات التى صاحبت أوجه نشاط اللجنة. وأتذكر اليوم الذى حضر فيه «السكرتير العام» أعمال اللجنة فى آخر العام (وكان عضوا فيها ولكنه لم يحضر من قبل قط !) لمجرد أن يميل باللجنة إلى قرار يراد اتخاذه، ولم يحضر بعدها.

لم يكن لى فى تلك الفترة–ولا فى أية فترة من حياتى– نشاط اجتماعى واسع. كان لى حلقة الأصدقاء القليلين، وأسرتى الضيقة والواسعة، وكان «نادى الشمس» هو الملجأ الذى آوى إليه، للتمتع بالشمس شتاء، والقراءة، والكتابة. كان له مكتبة صغيرة، وحمام سباحة، وصالونات شتوية، وحدائق ممتدة، وشرفات صيفية. وكنت إذ أنتهى من القراءة، أتمشى فى طرقاته، بين الخضرة، حتى أتعب، فأميل إلى حمام السباحة للمتعة البصرية فحسب ،وأنتهى بقراءة الصحف والمجلات فى المكتبة.

وكان «نادى الشمس» قد أسس بهذا الاسم فلما كان هناك اتحاد–أو مشروع اتحاد–بين مصر وسوريا وليبيا–غير اسمه إلى «نادى اتحاد الجمهوريات العربية»–أو إلى شىء من هذا–

فلما انحلت عرا هذا الاتحاد، عاد النادى إلى اسمه القديم ! هذه واحدة. وواحدة أخرى أنه بعد اشتداد الأزمة التموينية أنشئت «جمعية» فيه لبيع المواد التموينية، وأصدرت بطاقات تموينية خاصة للأعضاء. وكان يوم توزيع الفراخ يوم زحمة النادى، فيمتد «الطابور» وتنشب المشاجرات. وكان هذا المنظر قبيحا.

كان أول ما ذهبنا للمصيف سنة ١٩٦٦. ذهبنا إلى بورسعيد بالقطار، وكان عمر أمين شهورا. نزلنا فى «بنسيون» نظيف قرب الشاطئ. كنا نتناول فيه الإفطار، ونقضى اليوم على الشاطئ، متبلغين وقت الغداء بشطائر خفيفه. فإذا كان المساء أخذنا مى فى أيدينا ودفعنا أمين أمامنا فى عربته عبر المدينة حتى «أسماك أبو طرية» فنتناول وجبتنا الرئيسية. وفى سنة ١٩٦٧ اصطفنا فى رأس البر، وفى ١٩٦٨ اصطفنا فى بلطيم، وبعد عودتنا من الجزائر اصطفنا فى المعمورة سنة ١٩٧٤، ثم اصطفنا عامين متتاليين فى جمصة.

كنت – منذ تعلمت السباحة فى الترعة السوهاجية – أعشق العوم. وقد تمتعت به فى لندن، وبورسعيد، والإسكندرية، ورأس البر. أما فى بلطيم فقد كان البحر دائما هائجا، وأما فى

جمصة فقد كنت أنا نفسى بدأت أتحسب من نزول البحر. لم تكن الشطآن بالطبع جميلة أو نظيفة كشواطئ «برايتون» فى انجلترا، والجزائر، و«اليكانت» فى إسبانيا، ولكننى تمتعت بها على كل حال فى جو الهدوء النسبى، والاستجمام من العمل، والتأمل المبنى على قراءاتى القديمة عن هذه الشواطئ. لقد كنت-أيام الصيف الحارق فى جهينة وأنا صبى-أقرأ العدد السنوى الذى يصدره الهلال عن الصيف، ويكتب فيه فكرى أباظة وطه حسين وأحمد أمين والعقاد، وأحلم برؤية الأماكن التى كانت تتردد فيه. كان الخيال عندئذ يأخذنى بعيدا، فلما أتيح لى أن أرى طرفا من هذا العالم، اختلطت فى نفسى الصورة الخيالية النقية الكاملة بالصورة الواقعية الخشنة، فخاب أملى. ولكن مشاعرى كانت تدر من ناحية رؤيتى على الحقيقة ما لم أحلم برؤيته من قبل إلا فى عالم الصورة. وكان يلتقى عندئذ فى خاطرى عنصرا خيبة الأمل والمتعة فى مزيج غريب متوازن، وأقول لنفسى : هذه هى الحياة!

بحلول خريف ١٩٧٦ كان قد مر علىَّ خمس سنوات فى وظيفة أستاذ مساعد، وكان بوسعى عندئذ أن أتقدم إلى وظيفة «أستاذ». وكانت «الأستاذية»-ولا تزال-عندى هى «التتويج»

العظيم لأنبل جهد بشرى ممكن. وقد سعيت إليها باحتشاد عظيم، وخوف عظيم، وكنت فى كل مرة أكتب شيئا أسأل نفسى : وهل هذا يؤهل لأن أكون أستاذا أقف فى. صف واحد مع فلان وفلان (مستحضرا أسماء الأساتذة العظام الذين قرأت لهم وأعجبت بهم)؟ وكان الجواب يأتينى دائما على نحو يضعنى بين الأمل واليأس.

جمعت كل جهدى المنشور بعد ترقيتى إلى أستاذ مساعد، وتقدمت به إلى لجنة ترقية الأساتذة وانتظرت. ولا أقول أبدا إننى كنت واثقا فى فترة الانتظار أن النتيجة ستأتى لصالحى. وقد طالت المدة فبدأ الخوف يعترينى. لذا فقد دهشت حين علمت أن مجهودى حاز إعجاب الأساتذة على نحو واضح. وقد كلمنى فى ذلك عميد الكلية إثر جلسة مجلس الكلية التى نظرت التقرير. ومع أننى كنت عضوا فى المجلس فلم أحضر هذه الجلسة طبقا للتقاليد المرعية. وقد رقيت أستاذا فى أوائل عام١٩٧٧.

وفى صيف ذلك العام ذهبنا لمصيف جمصة، وحين عدنا وجدت تحت «عقب الباب» بطاقة من أحمد مختار يقول لى فيها

إنه مر للتحية. كان أحمد مختار قد ترك دار العلوم للعمل فى ليبيا، ثم ترك ليبيا للعمل فى الكويت، ولم أكن قد رأيته منذ زمن طويل. وقد بقيت فترة أفكر فى طريقة للاتصال به، ولكننى-قبل أن أفعل ذلك - قرأت فى «الأهرام» ذات صباح نعى والده، وكان علىَّ أن أذهب لأداء واجب العزاء فى ميدان التحرير.

وبعد أيام زارنى مختار فى البيت للشكر، فيما يبدو، على أداء هذا الواجب. وحين امتد بنا الحديث سألنى إن كنت قد قرأت فى الصحف حاجة جامعة الكويت إلى أستاذ فى النقد الأدبى، ولما أجبته بالنفى أخرج لى نص الإعلان مقتطعا من «الأهرام»، وسألنى إن كنت أحب أن أذهب للعمل هناك. كان السؤال مفاجأة تامة لى فلم أجب بنفى ولا إيجاب. وقد تناقشنا فى الموضوع مناقشة خفيفة، وانصرف.

وبعد أسابيع أرسل لى طلبا أتقدم به، وبعد مراسلات واستفسارات بينى وبينه تقدمت بالطلب دون حماسة. والحق أننى كنت مستريحا من الناحيتين المادية والمعنوية فى عملى بين دار العلوم والجامعة الأمريكية، كما كان شبح «الإعارة» الأولى فى الجزائر لا يزال يطاردنى.

لم تكن أحوالى الصحية فى تلك الفترة على ما يرام. كنت أعانى المتاعب منذ رقيت أستاذا. وقد مر بى الصيف والخريف دون راحة، فلما حل الشتاء اشتدت علىَّ الآلام. وفى أواخره- وبينما كنت أخرج من عيادة طبيب لأدخل أخرى-جاءتنى برقية جامعة الكويت بترشيحى للعمل أستاذا للنقد الحديث فى العام الجامعى ١٩٧٨/١٩٧٩. وقد جرت إجراءات الإعارة سهلة، وبحلول الصيف أصبحت مقررة. وقد وضعنى هذا من جديد أمام حالة «انتقالية» شبيهة بالحالة التى مررت بها حين كنت أبرح جهينة إلى أسيوط، وأسيوط إلى القاهرة، والقاهرة إلى لندن وإلى الجزائر. وقد وضعت هذه الحالة كل أفراد الأسرة فى حالة مقلقة. كانت مى تدخل إلى الثانوية العامة، وكان أمين مرتبطا بأصدقائه فى مدرسة الطبرى، وكانت زوجتى مستقرة فى عملها بالمدرسة الإنجليزية. وأما أنا فما أحببت «الغربة» قط.

قضينا فترة فى «جمصة» قبل السفر، وزاد من متعتنا بالمصيف وجود طاهر درويش وحماسة عبد اللطيف وأسرتيهما معنا، وتمتعنا خاصة بحلول شهر الصوم لأول مرة علينا ونحن خارج منزلنا. كنا ننتظر حتى تسقط الشمس فى البحر فنتناول

طعام الإفطار، وبعد راحة قصيرة نخرج للسهر نشطين. وكان لابد لنا أن نعود من المصيف لنسافر إلى الكويت أوائل سبتمبر ١٩٧٨. وهكذا قدَّر لى، وقد نشأت فى جهينة على حافة الصحراء، أن أعود، حين كنت فى السادسة والأربعين من عمرى، إلى الصحراء من جديد.

★ ★ ★

الكويت : العودة إلى الصحراء

حين حطت بنا الطائرة فى مطار الكويت يوم١١سبتمبر ١٩٧٨، بعد رحلة مريحة، فتحت أبوابها على جحيم حقيقى. كنت قد جربت فى الصعيد ذلك الحر اللاسع المباشر الخالى من الرطوبة، الذى يلفح الوجه فى قسوة «وأمانة»، كما جربت فى إنجلترا البرد الخالص الذى لايخادع ولا يداجى، ولكننى لم أكن قد جربت قط ذلك الحر الثقيل الوطأة، المشبع بالماء الذى يجثم على النفس، والذى يشعرك أنك تغوص فى أعماق يحتبس فيها النفس باطراد، مما يشعر بالاقتراب من نهاية لاشك فيها.

وبعد استقبال فاتر من مندوب الجامعة -ولم يكن كويتيا- وقفنا فى صفوف طويلة لفحص وثائق السفر، ورأيت بعينى كيف يخرج بين وقت وآخر شرطى صغير السن ليعيد إلى الصف المضطرب نظامه فى حدة بالغة، وكيف أن «المضطربين»

يستجيبون. وبعد انتظار صامت طويل كنا فى سيارة الجامعة منتقلين بسرعة إلى الطرف البعيد من المدينة حيث أعد لنا سكن مؤثث على نحو كامل ومكيف الهواء. وإذ عدت بذاكرتى إلى عشر سنوات مضت، حين هبطت أرض الجزائر، كانت المقارنة، فيما عدا الجو والمناظر، لصالح الكويت. أما الاستقبال الفاتر فكان عنصرا مشتركا هنا وهناك.

نمنا وأصبحنا، وتلقينا مساعدة الزملاء فى التنقل إلى أهدافنا الضرورية، واستقر الأولاد فى المدارس بعد رحلات إلى الوزارة والصحة وغيرهما، فى جو يصل فى قسوته أحيانا حد الخرافة. وكنت أتسائل دائما : هب أن السيارة تعطلت تحت هذا الوهج، كيف تستمر حياة من فيها ؟وحين زرت حوانيت بيع الأغذية تساءلت : هب أن هذا المدد «المستورد» انقطع لسبب أو آخر، كيف تستمر الحياة؟

وحين نقلت إحساسى هذا إلى صديق لى أجابنى بقوله : وكيف كان يعيش الناس قبل عصر الكهرباء والبترول ؟ ولم أجد فى جوابه راحة.

وتوازنت الأمور فى ذهنى بعد أيام، وذلك على النحو التالى : الجو قاس إلى حد يجعل شبح الهلاك يحلق فوق رأسك

دائما. والمرتبات مغرية جدا. وكل شيء متوافر المأكل والمشرب. وقد لاحظت أن الزملاء فرحون جدا بوجودهم فى الكويت، وأومأ إلى زميل «صعيدى» بأن علينا ألا نشتد على الطلاب «فهذا سبر» (نظام) بلدهم، وعقب قائلا : «وعلى رأى المثل : «إن كانت البلد تعبد عجلا» حش «وارم له». ولم أرتح إلى فكرة الحش والرمى هذه.

كانت جامعة الكويت تتبع فى نظام التعليم النسق الأمريكى الذى يقوم على الأساس التالى : يطرح القسم العلمى المواد الأساسية والاختيارية اللازمة لتخرج الطلاب فيه، محددة بأسمائها وأسماء القائمين بتدريسها، وأمكنة التدريس، وأوقاتها. وعلى الطالب أن يختار من بينها فى حدود ساعات معينة لكل فصل دراسى. فإذا وفى المواد المعينةوالساعات المعينة تخرج من الجامعة. وكان القسم العلمى يطرح مواد التخصص على مستواه وأخرى على مستوى الجامعة اسمها «متطلبات جامعية». وكان لهذا النظام-من الناحية النظرية- عيوبه وميزاته. أما من الناحية التطبيقية فقد بدت عيوبه لى تفوق حسناته على نحو واضح. كان هذا النظام يوهم-بما فيه من إحكام ظاهرى-أنه النظام العصرى، وذلك باعتماده على

«البرمجة» والحسابات، والجداول المتقدمة، ولكن لبه، ومقدار ما يقدمه للمتعلم من فائدة حقيقية، كان شيئا مسكوتا عنه، بل إنه لم يكن من المباح -فى السنوات الثلاث الأولى لعملى فى الكويت- مناقشة هذا النظام على الإطلاق.

كان أول نقص فى هذا النظام -فى نظرى- أنه بحذافيره نظام «مستورد» ومطبق «بحرفية» غريبة، لدرجة جعلت يومى الخميس والجمعة عطلة (لأن عطلتهم هناك السبت والأحد !) ولما كانت جامعة الكويت محدودة من حيث الأماكن بشكل واضح، وكان الوقت الذى أعطاه الله لعباده أيضا محدودا، وكان عدد الأساتذة محدودا، والنظام يقف بعدد الطلاب فى كل قاعة عند الثلاثين، وكان حجم القاعات نفسه صغيرا، وكان ثمة إصرار على أن ينتهى العمل -دائما- فى الخامسة بعد الظهر (ذروة الحر أو الوقت الملائم لبدء فترة ما بعد الظهر لانهايتها)، فقد خلق كل ذلك وضعا صعبا، جعل المسألة، تبدو أحيانا كالتمثيليات الهزلية. وقد أضرب الطلاب مرة لأنهم لا يجدون أماكن شاغرة فى المواد التى يريدونها (والنظام اختيارى !)، أما الأساتذة فلم يكن فى وسعهم أن ينتقدوا، فضلا عن أن يضربوا.

وكان أخطر ثغرة فى النظام أن فتح الشُّعب موقوف على إقبال الطلاب، وأن الأستاذ المتعاقد الذى تغلق شعبه نظرا لعدم إقبال الطلاب عليه معرَّض لإلغاء عقده. وقد قسَّم ذلك الأساتذة إلى نوعين ليس بينهما تكافؤ على الإطلاق، قسم «الأقلية» الذى حرص على المستوى فانفض عنه الطلاب، ووجد نفسه -مع مضى الزمن- يتمتع بسمعة «غير حسنة» مما يهدد عقده بالإلغاء، وقسم « الأكثرية» التى تساهلت فحظيت بإقبال منقطع النظير، لأنها طبقت سياسية «الحش والرمى». ومع تدهور المستوى أصبح الأستاذ يتفاخر لأن الطلاب يتزاحمون عليه (مع أن السبب معروف)، ويتندر على زميله الذى ينفض عنه الطلاب (مع أن السبب معروف).

على أن ثمة ثغرة أخرى خطيرة فى النظام وهى تسلط مجموعة من «البيداجوجيين» الأدعياء على أذهان المسئولين، وترهاتهم باسم الأصول المنهجية فى «التدريس النموذجى» والامتحانات النموذجية، مما حدا بطائفة من الأساتذة الذين يريدون أن يتلاءموا مع ما هو مطلوب أن «يزيفوا» نتائج لتتلاءم مع نظام «المنحنى» المطلوب، وإن لم تمثل الواقع.

وقد رأيت بعينى أساتذة يترضون الطلاب، كما رأيت بعينى أساتذة يقدرون درجات لأبنائهم فى جو ليس فوق مستوى الشبهات، أو يرسلون بهم إلى فصول أصدقائهم ليكرموهم ! وأنا أعلم أن هذا ليس من عيوب النظام ذاته، ولكنه-بالقطع-سهَّل لأمثال هؤلاء الوصول إلى ما يريدون، وكان خطأ أن يوضع «مثل» هذا النظام «لمثل» هولاء.

ولما أتيحت الفرصة لمناقشة نظام «المقررات» هذا، وكان ذلك فى السنة الرابعة لإقامتى فى الكويت، لم أتردد فى إعلان رأيى صراحة فيه، وكان ذلك فى جلسة رسمية فى القسم، وبعد عودتى أخبرت أن «زميلا» لى عدد من «مثالبى» أن الطلاب كانوا ينصرفون عنى، فسرنى هذا الكلام من حيث أراد هو غير ذلك، فأنا أعلم أن شيئا من «التساهل» فى إعلان نتيجة فصل دراسى واحد كان كفيلا بجلب العدد الذى أريده للفصل الذى يليه.

ضيقت مجال نشاطى إلى حد كبير، فلم أخرج عن حدود الواجبات الجامعية سوى مرة واحدة لبيت فيها دعوة «رابطة الأدباء» إلى إلقاء محاضرة شرحت فيها اتجاهى الذى أدين به- بصراحة- فى معنى النقد الأدبى.

ولم أكتب عن إنتاج أدبى كويتى قط، ورأيت بعضهم يتهافت- دون حياء-على مدح أعمال لأدباء كويتيين أحياء، بعضهم من أصحاب «السلطة» الأدبية، كما رأيت بعض الكويتيين يستخدم من هم فى منزلة أساتذتهم فى أعمال لا تزيد كثيرا عن خدمة السكرتارية.

وكانت حياتنا الاجتماعية محدودة للغاية، وتكاد تنحصر فى الزيارات العائلية بين المصريين، وارتياد نادى الجامعة الصغير فى «الشويخ»، والتجول فى الأسواق، والمشى-حين يسمح الجو-على الخليج. وقد خفف عنا عبء الإيقاع البطئ للأيام والشهور مجئ فاروق شوشة مرة أو اثنين، ومجئ السعيد بدوى مرة واحدة، ثم مجئ حماسة عبد اللطيف للعمل فى القسم الذى كنت أعمل به. كانت صحبته ممتعة،ولم يكن يمضى يوم إلا ونتحدث طويلا فى التليفون أو نلتقى.

قبل عودتنا بقليل توفى فجأة زميل لنا فلسطينى كان يسكن «البناية» التى نسكنها، وشيعناه إلى مقابر «الصليبخات» - وهى المقابرالعامة - ورأيت بنفسى صورة للماضى : كانت الصحراء ممتدة كأنها «جبَّانة» جهينة، وكانت المراسم هى

المراسم. صلاة الجنازة فى الخلاء، ثم الدفن فى حفرة بدون شاهد سوى كومة من التراب. وبعد عودتى من المقابر شعرت بألم فى الجانب الأيسر تحت الفك، وما مر يومان حتى تورمت هذه المنطقة كلها. وقد قلقت وترددت على الأطباء الذين شخصوا المرض على أنه حصوة فى الغدة اللعابية. كنت أسمع باسم المرض لأول مرة، وقد دهش جميع الزملاء، وأصبح من الضرورى إجراء عملية جراحية. وبعد أسبوع- ونتيجة لمساع حميدة لتوفيق الفيل-دخلت المستشفى. كنت قلقا إلى أقصى حد. وقد قارنت-وأنا أرقد مسهدا-ليلة إجراء العملية-بين الحالة التى أنا عليها، وحالتى وأنا أرقد فى الجزائر متألما بالمغص الكلوى فى «كلينيك سنترال»- كنت أرثى لحالى، ولكن سرعان ما أتمالك. وقد مرت العملية بسلام على يد جراح كويتى، وطبيب تخدير هندى. وكانت تلك التجربة الأليمة آخر العهد بالكويت.

إن المعيشة فى بلادنا-بلاد العالم الثالث-صعبة. وأصعب ما وجدت فى الجزائر الروتين»، وأصعب ما وجدت فى الكويت الجو، والتفرقة بين غير «الكويتى» و «الكويتى». كانت هذه الناحية الأخيرة أشبه ما تكون بالتفرقة العنصرية، ولم أستسغها على الإطلاق.

هذه الناحية الأخيرة أشبه ما تكون بالتفرقة العنصرية، ولم أستسغها على الإطلاق.

عدت فى الكويت إلى الصحراء. ولكن أية صحراء؟ إنها صحراء المال المتدفق من الأرض، والسلع المتدفقة من كل أرجاء الأرض. والكويت تزخر بمشاعر المالك الحريص، والمنتفع الطامع، والقلة الضائعة التى تسعى-دون جدوى-لأداء مهمة حقيقيه. وفى الكويت عرفت نمطا من الناس، صلبا، ميكانيكيا، عارفا بطرق جمع المال والحفاظ عليه. يفصل نفسه عن كل شىء، ولا يسمح لأفكاره ومشاعره أن تتحرك فضلا أن تجد طريقها إلى لسانه. ومن الكويت أتيحت لى فرصة زيارة باريس مرة ثالثة. ذهبت إليها هذه المرة مستشفيا. وحين طمأننى الطبيب قضيت فى ضيافة حامد طاهر وأحمد درويش عشرة أيام جميلة، وكانا يعدان للدكتوراه فى السوربون. وفى الكويت كتبت عدة أبحاث متخصصة جمعتها سنة ١٩٨٣ فى كتاب بعنوان «قراءة الشعر».



في الخمسين عرفت طريقى

عدت إلى المعقل الحصين، دار العلوم ، من جديد، أعمل بكل طاقتى، وأتأمل، وألقى أصدقائى. وقد نمت خبرتى-نسبيا-فى مجال «النقد الأدبى»، وهو الفرع الذى أحبه، ولا أتصور نفسى عاملا فى فرع سواه. كذلك نمت خبرتى بالناس؛ فلاحظت بحسرة حقيقية ما طرأ على الحياة من تغير : كنت قد نشأت فى بيئة بطيئة «الإيقاع»، وتعلمت بطريقة متئدة، ونمت آمالى فى تدرج، وصح عندى أنه لا كسب دون عمل، ولا «تكوين» إلا مع الزمن. وفجأة وجدت أن ما صح عندى ينقلب-فى السنوات القليلة الماضية-رأسا على عقب : وجدت معيدين حديثى التخرج لا يكتفون بأحلام الثراء والاستقرار بل ينهضون إلى تحقيق كل ذلك فورا دفعة واحدة.وقد ينشغلون-فى سبيل ذلك-عن أداء المهمة الأصلية-مهمة التكوين العلمى- وقد يصلون إلى حد ترك الجامعة والعمل فى بلاد البترول، وقد يصلون إلى حد

اللحاق بالزوجة فيما يسمى «مرافقة». ورأيت أن بعض هؤلاء لا يتردد، إذ تناقشه فى الضرر المحيط بجنون تكوين المال بهذه الطريقة فى الإشارة إلى ما حققته «أنت» وما يريده «هو» لنفسه. بل إن بعض طلابى أنفسهم لا يتردد، إذ أُلفت نظره إلى ضرورة التقيد بموعد المحاضرة، فى لفت نظرى إلى أن «المواصلات» بالنسبة له ليست «كالمواصلات» بالنسبة لى (مشيرا إلى أنه ليست لديه سيارة مثلى !). حقا إن ظروف الحركة صعبة، ولكننى من جانبى لا أذكرها سهلة على الإطلاق ! وأذكر الأيام التى كنا نمشى فيها على الأقدام مسافات طويلة كل يوم دون أن يعنينا إن كانت «المواصلات» مزدحمة أو فارغة.

وتغيرت مقاييس البحث والإعداد للدرجات العلمية فأصبح المهم أن ترضى المشرف لا الحقيقة، وأن يختار للامتحان المرضى عنه، المأمون الجانب من الأساتذة، لا المؤهل للمناقشة، وأن الامتحان يسير فى ناحية والتقدير فى ناحية أخرى. . إلخ. ورأيت ما أصاب المكتبات العامة من حالة مزرية، وما أصاب الكثير منها من موات. وهكذا اتضحت المعالم – وقد بلغت الخمسين – أمام روحى فى أمور كثيرة.

وفى الخمسين أصبح واضحا عندى كذلك أنه لا سبيل إلى النهوض بالنقد الأدبى سوى سبيل العمل الشاق والتأهيل الرفيع، وفتح النوافذ على العالم لمعرفة ما لدى الآخرين، ونفى أية ثرثرة مسترخية حول النص، وتخصيص كل الجهد المخلص الصابر الكفء للقراءة «النصية»، وذلك لتأصيل تقاليد القراءة النقدية الفاحصة، التى يقوم بها مجموعة من النقاد المؤهلين، عبر جيل أو أكثر من الزمان.

وفى الخمسين رسخ اعتقادى فى أنه لا خسارة أكبر من أن يربح الإنسان الآخرين ويخسر نفسه. وصح عندى أن الصراحة الكاملة هى المنهج الذى ينبغى اتباعه فى الحياة العملية. إننى لا أتدخل فيما لا يعنينى أبدا ولكننى-فيما يعنينى-لا أسمع الناس أبدا ما يحبون، إذا تعارض هذا مع ما أعتقد أنه الحق. وأحاول دائما أن أضع ما أعتقد بصراحة فى أسلوب قولى يتفق وأصول الأدب العام، وأعبر-فى كل الأحوال-عن المعانى التى أجدها فى ذهنى بأقصى قدر من الدقة والتجرد.

وفى الخمسين لم يعد «المظهر» يخدعنى، ولم يعد الادعاء أو «علو الصوت» يستهوينى. والحق أن ذلك لم يستهونى قط، وإن

كنت خدعت ببعضه فى بعض مراحل حياتى، فإن ذلك يعود إلى أننى مفطور على حدة الخيال، وسرعة التأثر والانبهار، كما يعود إلى نقصان واضح فى تجربتى. وأنا الآن أحاول - ما وسعتنى المحاولة - أن أعطى نفسى فرصة لتأمل ما أسمع وما أرى، وأتجنب التورط فى وهج اللحظة الحاضرة.

وفى الخمسين أصبحت أ كثر وعيا بقيمة الوقت، ونجحت فى ضبط الموعد رغم صعوبة ذلك. كنت قد تعلمت ضبط الوقت، وصدق الوعد ، فى جهينة إذ أنا صبى، ثم اضطرب ذلك عندى أول عهدى بالقاهرة، ولكننى حين رأيتهم فى انجلترا - فيما بعد - يضبطون أوقاتهم ومواعيدهم بالدقيقة، حرصت على وصل إحساسى بالزمن ما بين جهينة وانجلترا. وكنت فى انجلترا أرى زملاء الدراسة يتأخرون عن مواعيد الدرس غير مبالين بتعليقات المدرسين من الإنجليز - التى تصدع الصخر - عن «المواعيد العربية» و «المواعيد المصرية». ومن عادتى التى حافظت عليها ألا أتأخر عن درس أو موعد إلا لضرورة قصوى-وأكاد أحصر هذه الضرورات فى المرض و«موت عزيز» وتعطل وسيلة المواصلات-وقد وضعنى ضبط الموعد أحيانا فى مواقف حرجة، فقد أصل فى الموعد فلا أجد مضيفى، أو أجده نائما، أو

غير مستعد لاستقبالى. وقد أذهب لمناقشة رسالة جامعية، وأكون ضيفا، فلا أجد المشرف الداعى. وقد دعيت مرة إلى محاضرة فذهبت فى الموعد بالضبط فإذا باب القاعة ما يزال مغلقا بالمفتاح !

وفى الخمسين أصبح حجم ما أرفضه أكبر من حجم ما أقبله. وقد أزعجنى هذا فى البداية، وعزوته إلى نقصان درجة التسامح لدىَّ، ولكننى لم أجد راحتى فى هذا التعليل. إن الترخص ليس فى طبعى. وأنا أمارس «الضبط» نحو نفسى قبل أن أمارسه نحو الآخرين. إن عدد القصائد التى أعجب بها الآن - مثلا - قليل جدا إذا قيس بعدد القصائد التى كنت أعجب بها من عشرين سنة أو عشر سنوات. وقد يكون السبب زيادة خبرتى، وقد يقال إن الشعر تدهور. كنت فى شبابى آخذ الكتاب فلا أدعه حتى آتى إلى نهايته، وأنا الآن أتخلى عن تكملة كتب كثيرة بعد الشروع فى قراءتها بقليل. فإذا انتقلت من عالم الكتب إلى عالم الناس أدرك أنَّه فى السنوات العشر الماضية مزقت حجب كثيفة عن عينىَّ، وانقشعت أوهام كثيرة عن خيالى.

وفى الخمسين أصبحت أكثر وعيا بالصيغة التى أختارها لمعنى الثقافة والحرية. أما الثقافة فقد تحررت فيها من عبادة

الماضى، فأنا لا أقول بأن كل ما ينتمى إليه عظيم كله أو حق كله. وكنت قد ملت فى شبابى المبكر إلى شىء من هذا، نتيجة لما ترسب فى ذهنى من «التعليم الأزهرى». وأنا مدين بفكرتى الحالية لبعض ما تلقيته من مواد عصرية فى دار العلوم، ثم لما قرأته أواخر عهدى بالأزهر، وأوائل عهدى بالقاهرة، من أعمال طه حسين وأحمد أمين وشعر المهجر، ولما قمت به من قراءة منظمة فترة لندن وما بعدها. إننى أتمتع إلى أقصى حد بقراءة الشعر الجاهلى، وشعر المتنبى والمعرى والشريف الرضى وأشعار العذريين، كما أتمتع بقراءة كثير من كتب الأدب والنقد. ولكننى لا أقبل الماضى على علاته، وهذا هو جوهر القضية. وأنا مع الحاضر لست أسعد حالا؛ فقليل منه يملأ ذهنى ويثير إعجابى. وأنا فى جميع الأحوال أقرأ ما يعجبنى، وأعيد قراءته. وأقع فى عشق بعض ما أقرأ، فيظهر أثر ذلك علىَّ فى الفكر، واللغة، والسلوك. وثمة كتب شكلت فكرى ومعتقداتى، وثمة عبارات تسربت - دون أن أشعر - إلى ذهنى وقلبى ولسانى، وأصبحت بعضا منى.

وأما الحرية فلى معها قصة قصيرة : نشأت فى مجتمع شبه قبلى، تحكمه تقاليد العائلة، وليس للحرية الشخصية فيه

معنى كبير ،إذا قيس بمعنى الانتماء العائلى. ومن هنا كان التعبير عن الذات فى هذا المجتمع أمرا مستغربا. وفى طفولتى المبكرة – وحين كنت أرى الصبيان يعرجون على خلجان الترعة السوهاجية لإطفاء الحر بالسباحة–كنت «أتحرق» لذلك شوقا، ولكننى لم أكن أفعله. وكان يعزينى قليلا أن ما يفعله الآخرون فيه خروج على «التقاليد»، وأما أنا فملتزم. وأذكر أننى فعلتها مرة واحدة، ولأننى قليل التجربة فقد رفضت أن أمرغ نفسى فى الرمل الناعم قبل الدخول إلى «الحى»، ودلفت إلى البيت وأثر طمى الحياض يلمع فى جبهتى، فكان ما لم أستطع الدفاع عنه، ولم أنج من العقوبة.

وحين شببت استبدلت بالحنين إلى السباحة فى السوهاجية الحنين إلى السهر خارج البيت. وكنت أغامر أحيانا فأسهر–دون إذن–حتى ساعات الصباح الأولى، مستمتعا بأصوات المنشد وشاعر الربابة، وبصوت عبد الوهاب وأم كلثوم، بعد أن دخل جهاز الراديو قريتنا. كانت العودة إلى البيت فى ظلام الليل محنة كبيرة، وكان التعنيف من أشد الأمور على نفسى، ومع ذلك كان الميل إلى ممارسة حرية السهر يجتاحنى

اجتياحا، فكنت «أفعلها» وألام عليها، و«أفعلها» وألام عليها. . وهكذا.

فلما أصبحت طالبا فى الأزهر-تحت رعاية أخى الأكبر- لم أتحمل روتين الحياة الفظيع فى «الغربة»، فارتكبت أكبر مغامرة فى حياتى، وهى ترك أسيوط-دون إذن من أخى- والرحلة إلى القاهرة. وقد حز فى نفسى ما قرأته بعد عودتى فى رسالة إلى أخى من أحد زملائه إذ كتب له مواسيا بأننى «مجرد (عيِّل) صغير» (وكنت فى السادسة عشرة من عمرى!).

حين انتقلت إلى القاهرة حصلت على حرية «نسبية»، ولكننى كنت تواقا إلى أن آخذ حريتى كاملة، «فأفعل» و «أقبل» و «أرفض»، ولما لم يكن ذلك ممكنا بدون تحطيم «الولاء الأسرى»، فقد بقى ولائى العائلى واضحا على حسابى حريتى الكاملة، وعوضت النقص بالعمل الشاق، وقراءة الأدب، وإطلاق العنان للخيال.

وفى سنوات انجلترا بدأت معانى الحرية تأخذ فى نفسى صيغة جديدة أكثر وضوحا وتماسكا، وتكون لدىَّ - بالتدريج - ما أصبحت أومن به فى هذا الموضوع حتى الآن: أصبحت أؤمن

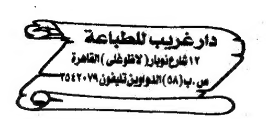
إيمانا كاملا بالحرية الشخصية فى الحقوق والواجبات، وبقيت أؤمن بالروابط العائلية، ولكن على نحو مرن جدا بالقياس إلى معانيها التى نشأت عليها، وجدت لدى ألوان من الوعى بمعنى الحرية السياسية والإدارية.. إلخ.

وفى الخمسين هدأت نفسى قليلا، وهدأ عقلى قليلا. ولم أعد أنتظر ثوابا على ما أفعل، كما لم يعد رضا الآخرين عنى فى جميع الأحوال يعنينى كثيرا، وبخاصة إذا أتى من طريق لا يتفق وما أعتنقه. وضاقت لدىَّ رقعة أحلام اليقظة وإن لم تفارقنى، واتسعت أمامى رقعة العمل والخيال، وأصبحت أجد متعتى فى اختيار ما أقرأ، وما أكتب، ومن أصاحب.

وفى الخمسين زادت درجة تأملى لأحوال الدنيا، وأصبحت أكثر تذوقا للموسيقى إذا جن الليل، وللطبيعة - صنع الله - إذا طلع النهار.

★ ★ ★

المحتوى


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٢٥٤٢٠٧٩